إدراكُ الحَقائِق طريقُ الإيمان

مع قراءة منهجية لكتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي حجة الإسلام

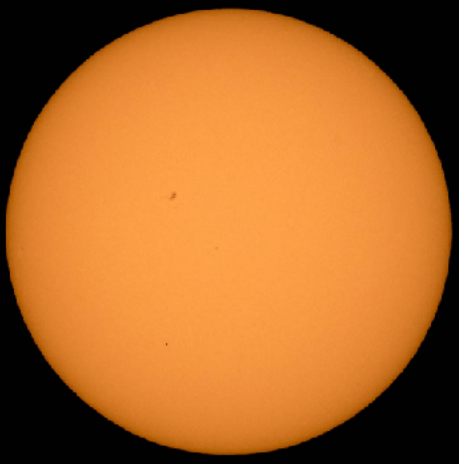

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

FREE EDITION
كتاب مجاني لا يباع
NOT FOR SALE

KIE Publication

إِدراكُ الحَقائقِ طريقُ الإيمانِ

مع قراءة منهجية لكتاب المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي حجة الإسلام

د. سامر مظهر قنطقجي

الطبعة الأولى ٢٠٢١

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

سورة الأنعام : ١٥٣

منشورات كاي

إن مطبوعات (كتاب الاقتصاد الإسلامي الالكتروني المجاني) تهدف إلى :

- تبني نشر مؤلفات علوم الاقتصاد الإسلامي في السوق العالمي؛ لتصبح متاحة للباحثين والمشتغلين في المجالين البحثي والتطبيقي .
- توفير جميع المناهج الاقتصادية للطلاب والباحثين بصبغة إسلامية متينة .
- أن النشر الالكتروني يعتبر أكثر فائدة من النشر الورقي .
- أن استخدام الورق مسيء للبيئة، ومنهك لمواردها .

واللهُ من وراء القصد .

زيارة جامعة كاي KIE university رابط

يمكنكم التواصل من خلال : www.kantakji.com

جامعة كاي

جامعة مرخصة من التعليم العالي

خيارك الأفضل لدراسة الاقتصاد الإسلامي وعلومه

https://kie.university

توضيح

إن كل ما ورد في الكتاب هو حقوق بحثية للمؤلف، ويعتبر ورقة بحثية من الأوراق البحثية لمركز أبحاث فقه المعاملات الإسلامية وجامعة كاي.

يسمح باستخدام هذ الكتاب كمنهج أكاديمي (كما هو منشور) مجاناً مع ضرورة المحافظة على حقوق المؤلف.

www.kantakji.com , www.kie.university

الإهداء

اللهم اجعل ثواب عملي هذا في صحيفة حفيدي سامر وأبيه مظهر؛ واحفظهما واجعلهما من عبادك الصالحين؛ العلماء العاملين في خدمة الإسلام والمسلمين.

هذا كتاب أهديه:

- لكل من أراد الوصول إلى حقيقة الإيمان بالدليل العلمي.
- لكل من تمسك بفرقةٍ ومذهب دون دراية.
- لكل من حارت به السُبُل بحثًا عن طريق الحق.
- لكل من أشرك بالله فظلم نفسه.
- لكل من كفر بالله فأودى بنفسه.

لعل كتابنا هذا يكون مُنقذًا لكل من وقع في الضلال المبين أو كاد.

والله من وراء القصد.

أبو حامد الغزالي بإيجاز

هو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أبو حامد، حُجة الإسلام؛ ولد في (٤٥٠ هـ= ١٠٥٨ م) في الطابران (قصبة طوس، بخراسان)، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد؛ فالحجاز؛ فبلاد الشام؛ فمصر، وعاد إلى بلدته. أما نسبته فإما لصناعة الغزل أو إلى غزالة وهي من قرى طوس، مات رحمه الله في (٥٠٥ هـ= ١١١١ م).

ألّف ما يزيد عن مائتي مصنف وكتاب؛ أشهرها: إحياء علوم الدين، وتهافت الفلاسفة، والوسيط في المذهب، ومحك النظر، ومعيار العلم في فن المنطق، والتبر المسبوك في نصيحة الملوك، والاقتصاد في الاعتقاد، والمقصد الأسنى، وفضائح الباطنية، وقواعد العقائد، وأصناف المغرورين، ومعارج القدس في مدارج معرفه النفس، والمنقذ من الضلال، وبداية الهداية، كيمياء السعادة، مشكاة الأنوار، وميزان العمل، وجواهر القرآن، والمستصفى، والمنخول، وغيرها.

وبسبب الانفتاح المعرفي؛ شاع في زمنه كثرة المذاهب والفِرق، فالإسلام انتشر في بقاع الأرض يُمنة ويُسرة شمالاً وجنوبًا، وكان لابد من احتكاك معرفي أدى إلى مزج الثقافات، تأثر خلالها بعض المسلمين بالمعارف الواردة أو المستوردة؛ ليبدأ صدام معرفي بثوب صراع ثقافي، فالكل يدّعي الحقيقة وأنه على الحق؛ كما ذكر الغزالي، فما كان من هذا العالِم الفذ إلا أن شمّر عن ساعد الجدّ والعمل ليذبّ عن الحقيقة بموضوعية، وليزيل عنها غباراً طال عليه الأمد، وهو لم يفعل ذلك بوصفه مسلمًا أو منتسبٍ لمذهب دون غيره، بل ترك تدريسه في أكبر عاصمة عالمية آنذاك، هاجراً

الشهرة والمال وكل زخارف الدنيا، ليعايش أتباع الأديان والفِرق مستمعًا لحججهم ودفاعهم، واستغرق ذلك عشرة سنوات أي أكثر من ٣٥٠٠ يوم وليلة، ليلخص آراءه بستين صفحة جعل عنوانها: **المنقذ من الضلال**، فكان عنوانًا يشف ما تحته من بيان، فيه الحجج الجزلة، وبلاغة التعبير، وليس هذا بغريب على هكذا عالِم.

إنها رحلة البحث عن الإيمان الحقيقي، والغزالي صاحب مؤلفات غزيرة وكتابات شهيرة لا ينقصه إيمان بالله تعالى، ورغم ذلك شمّر عن ساعديه ليقدم الحجج لمن انحرفوا وحرّفوا فضاعوا وأضاعوا، فاعتبر نفسه صاحب المائة الذين خصهم صلوات ربي وسلامه عليه بالمجددين، فهو المجدد بالعلم والعمل والسلوك، وهو لم يُبقِ نفسه في صومعة العلم مُنظّرًا، ولم يعتلي برجًا عاجيًا بسلوكيات فيها ما فيها من انعزال وشطحات، ولم يترك العِنان لعقله ليسبح في تصورات إدراكاته بعيداً عن حواسه، ولم يُسلّم الدفة لحواسه لتقوده بعنجهيتها التي يغلب عليها العمل العضلي، فالكلام من مُخرجات اللسان ولغة الجسد من مُخرجات الأعضاء.

وصفه البعض بأنه فيلسوف، وهو ليس بذلك، فقد فنّد منهجهم وحطّ من قَدرِهم، ووصفه البعض بالمتصوف، وهو ليس بذلك، فقد مدح المتصوفة لكنه فنّد أخطاءهم ونَقد بعض ما ذهبوا إليه، وهو لم يدّعِ أنه منهم كما سيتضح لاحقًا.

لقد صاغ كل ما وهبه الله إياه ضمن قالب أسماه الأنموذج وهو ما سنحاول قراءته قراءة منهجية علمية يستفاد منها في بيان طريق الإيمان، كما يُستفاد منها في بناء مناهج البحث العلمية، وهذا ما استنبطته عند إعدادي لمنهج المحاسبة في رسالة الدكتوراه خاصتي منذ عشرين عامًا تقريبًا إضافة لقواعد الشاطبي وغيرهما.

وبسبب صعوبة كتاب المنقذ من الضلال؛ قرأته مراراً على مدى سنين ولأكثر من عشرين مرة، وكنت أطلب من طلبتي المتميزين في الدراسات العليا أن يطلعوا على الكتاب؛ حتى قال لي أحدهم مرة: يا ليتك تشرحه لنا لنفهم ما استغلق علينا فهمه، فاقتنعت بالفكرة، وطلبت العون من الله ليفتح عليّ فتوحًا كما فتح فيه على غيري ممن كتب وألّف بغية طلب القرب منه تعالى.

وللاستزادة في فهم هذا الكتاب لابد من قراءة بعض كتب الغزالي ذات العلاقة؛ كالإحياء، والقسطاس المستقيم، وغيرهما؛ لتكتمل الصورة التي رسمها الغزالي ببراعة؛ فجزاه الله عن الأمة الإسلامية كل خير، لأنه سهّل درب سالكي طريق الإيمان الحقيقي بأقل عناءٍ ممكن.

الفهرس

منشورات كاي ٤
توضيح ٦
الإهداء ٧
أبو حامد الغزالي بإيجاز ٨
الفهرس ١١
المقدمة ١٥
الفصل الأول طرق إدراك الحقائق بالمنهج القرآني ١٨
المبحث الأول - طرق انتقال العلم ٢٢
تعليم الملائكة ٢٢
تعليم آدم عليه السلام أول البشر ٢٤
التعليم بإقرأ ٢٦
الحواس أدوات تعلّم ٢٧
العقل والتعلّم بالمحاكاة ٢٨
المبحث الثاني - طرق كسب العلم الغيبي ٣٠
الحقائق العلمية اليقينية في سورة الفاتحة ٣٠
عناصر الإيمان والضلال في سورة البقرة ٣٢
ثمرات الإيمان بالغيب
المخادعة والإفساد
جزاء الإيمان بالغيب
ضربُ المثل منهج تجريبي ٣٥
العلم الغيبي مصدره الخبر اليقيني ٣٦
القضية الايمانية والقضية الكونية ٣٩
المبحث الثالث - طرق كسب العلم الأولي ٤١
كسب العلم بإيحاء من الله لرسله ٤١
كسب العلم بتعليم الله تعالى لرسله ٤٢
كسب العلم من رسل الله وأنبيائه ٤٥

كسب العلم بمحاكاة المخلوقات----------٤٦

المبحث الرابع - طرق فساد العلم..... ٤٨

تشويه الحقائق والميل عنها---------- ٤٨

العادات والتقاليد---------- ٤٩

التكبر وإدعاء التفرد---------- ٥١

آفات نقص العلم---------- ٥٢

المبحث الخامس - مقومات العملية التعليمية..... ٥٤

مصطلحات وتعابير ذات علاقة---------- ٥٤

– المعرفة

– الفهم

– الفقه

– العقل

– الدراية

– الحكمة

– الفرق بين العلم والإدراك

– الفرق بين الإدراك والإحساس

– الفرق بين الإدراك والوجدان

– الفرق بين الذّوق وإدراك الطّعم

الحاجة للرسول المعلم----------٥٧

مهمة الرسول المعلم التبشير والإنذار---------- ٥٨

مذاكرة الرسول العلم مع المتعلمين---------- ٥٨

موسى والخضر والعملية التعليمية----------٥٩

مراتب العلم---------- ٦١

حكمة رد العلم إلى الله---------- ٦٢

الفصل الثاني المنهجية العلمية عند الغزالي في المنقذ من الضلال_____ ٦٦

قواعد يلتزم بها الباحث العلمي---------- ٦٧

قاعدة: عند فساد العلم يختلف الناس

قاعدة: صفات العالِم المصلح

قاعدة: غاية العالِم الحق؛ إصلاح فساد العلم لإصلاح حال الناس

قاعدة: العلم يسبر حقائق الأمور

قاعدة: العلم اليقيني أمان من الخطأ
مدخل السفسطة وجحد العلوم---------- ٧١
الشك المنهجي: العقل يُشكك بالحواس
الشك المنهجي: الحواس تُشكك بالعقل
الرؤى والمنامات
أصناف الفرق---------- ٧٥
علم الكلام؛ مقصوده وحاصله---------- ٧٦
الفلسفة---------- ٧٨
قاعدة: من الفلسفة ما يُذمُّ وما يُكفَّر فيه قائله وما يُبدَع فيه
قاعدة: لا يقف على فساد نوع من العلم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم
الدهريون ٧٩
الطبيعيون ٧٩
الإلهيون ٨٠
علوم الفلاسفة---------- ٨١
الرياضية ٨١
المنطقيات ٨٣
علم الطبيعيات ٨٤
الإلهيات ٨٤
السياسيات ٨٦
الخُلقية ٨٦
مذهب التعليم وغائلته---------- ٨٧
قاعدة: معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم
قاعدة: الحكم بغالب الظن؛ لأن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية
طرق الصوفية---------- ٨٩
تخيلات الصوفية ومغالاتهم
حقيقة النبوة واضطرار الخلق كافة إليها---------- ٩٤
الإنسان في أصل الفطرة خُلق خالياً ساذجًا
المحسوسات
العقل

قاعدة: أمور لا تقوم إلا بتوفيق وإلهام من الله
قاعدة: أمور يمكن إدراكها في النوم
قاعدة: أمور يمكن الوصول لها بالذوق
قاعدة: أمور يمكن إدراكها بالقياس (المشاهدة والتجربة)
قاعدة: تكرار التجارب؛ مدخل لاكتساب العلوم الأولية
سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه (عود على بدء)---------- ٩٨
نقد الصوفية والخروج من العزلة لإحياء دَور العالِم الحق
تصحيح مسار الإدراك واجب حتى على العالِم
حصر الشبه السبع---------- ١٠٥
نور النبوة مدخل لإدراك العلم الضروري
الفصل الثالث مثال عن جدليات حول إثبات وجود إله فيزيائيا_____ ١١١
- الجدلية ١ : الأحداث المأساوية كالأوبئة تدفع للتساؤل عن مسألة وجود إله---------- ١١٢
- الجدلية ٢ : هل الإله قادرا على كسر قوانين الفيزياء؟---------- ١١٣
- الجدلية ٣ : لا شيء قادر على الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء مما لا يعني وجود إله من عدمه---- ١١٤
- الجدلية ٤ : ينتقل الدوران المغزلي بين جسيمين بشكل فوري ، وهذا يفوق سرعة الضوء-------- ١١٥
- الجدلية ٥ : إذا كان هناك إله ؛ فسيطرح ذلك سؤالا عما إذا كان سيتقيد بالقوانين والقواعد العلمية-- ١١٦
- الجدلية ٦ : ما يُزعج علماء الكونيات أن الكون أُعدّ بدقة كي توجد فيه الحياة بصورتها الحالية----- ١١٧
- الجدلية ٧ : هل تساعد فيزياء الكم في تفسير فكرة وجود إله يستطيع أن يصبح في مكانينْ في آن واحد؟ ١١٨
- الجدلية ٨ : هل يمكن للإله التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء؟---------- ١١٨
- الجدلية ٩ : المصادفة السعيدة---------- ١٢٣
- الجدلية ١٠ : هل يقوم الإله بأكثر من مهمة معًا مع الحفاظ على نسيج الزمان والمكان بشكل طبيعي؟- ١٢٤
- الجدلية ١١ : هل يدير الإله الكواكب بمهارة وكأنها كرات هائلة الحجم؟---------- ١٢٥
- الجدلية ١٢ : تقاطع الإيمان مع المنطق التجريبي العلمي يحتاج وقفة مع المنهج العلمي---------- ١٢٦
- الجدلية ١٣ : لا يحاول العلماء إثبات وجود إله فلا يمكن تأكيد مثل هذا الوجود عبر أي تجربة علمية- ١٢٧
- الجدلية ١٤ : وجود إله لا يشكل تفسيراً مقبولا للأمر من الوجهة العلمية---------- ١٢٨
الخاتمة_____ ١٢٩
الدرس المستفاد
المراجع_____ ١٣٢
صدر للمؤلف_____ ١٣٤

المقدمة

ينتاب الإنسان شعور بالنقص مهما مَلك من ملذات الحياة، ومن ذلك النقص:

- انتحار شخصيات مرموقة ولديها كل ما لذ وطاب، وجماعات تنتحر جماعيًا ولديهم كل ما يشتهون.
- شخصيات عالمية عريقة لا ينقصها شيء من متاع الدنيا تميل لقتل الضعفاء من النساء والولدان وغيرهم.
- أفراد وجماعات تُفسد وتُخرب في البلاد وتتعدى على الأطفال، أو تسرق الناس.
- هناك من يخاف الموت، ويرغب بشدة أن يعرف ما بعد الموت، وهل جسده إلى زوال أبدي أم أن هناك شيء آخر؟

يحاول البعض ترميم نقص معلوماته وإتمامها؛ فيلجأ إلى السحرة والمشعوذين لعله يجد عندهم أجوبة شافية لحالته، بل هناك زعماء وملوك لديهم عرّافين يعينوهم على معرفة المستقبل وما سيكون فيه.

إن محدودية علم الإنسان بما هو محسوس من حوله، يجعله متشوق للغيب وما فيه، فتراه يرغب بالاطلاع على ما في السماء والنجوم وغيرها، راغبًا بمعرفة ما خفي عنه باذلاً لأجل ذلك الغالي والثمين.

إن رحلة العلم في هذه الدنيا رحلة لها بداية قد أوضحناها بما فهمناه من كتاب الله تعالى وتدبرناه، ولها مستجداتها حيث يزداد علم الإنسان وينقص، ويترسخ في

العقول؛ فمنه الصحيح ومنه الفاسد؛ فكيف يُميز الإنسان بين الصالح والطالح من العلم؟ وكيف يستقي العلم؟ وبأي المصادر يثق؟

ويزيد الغموض عند الإنسان أنه يستشعر بوجود علم غيبي أي غائب عنه وهو حاضر في حياته؛ فكيف يصل إلى حقيقته؟ وكيف يأمن جانبه؟ وهل هناك مسلمات وبديهيات يأمن صحتها فيبني عليها معارفه؟ لأن الخطأ في مثل ذلك معناه أنه أضاع حياته بلا قيمة وبلا طائل! ولربما مات الإنسان وهو على الجانب الخاطئ، فإذا صح الاعتقاد بأن هناك جنة ونار؛ فهل يُضحي بحياة سيعيشها مرة واحدة للمقامرة بمصيره؟

يعتبر الدِّين أكثر الأشياء ضبابية للناس، فالإنسان مجبول على أن يعبد ما يعتقده يستحق العبادة، وقد حرّف الكهنة وأشباههم الديانات التي جاءتهم من الله، واعتقد كثير من الناس أنها من الله فجعلوها دينًا يُعتد به، كما استحكمت العادات والتقاليد بين الناس فباتت دينًا لهم أيضًا. واستمرت هذه المغالطات وأشباهها واستمرت معركة البحث عن الصحيح منه؛ فكل فرقة ومذهب تدعي أنها على المسار الصحيح وأنها تملك الحقيقة؛ فكان الفلاسفة والمتكلمون والباطنيون والمتصوفون وغيرهم.

وقد أرسل الله تعالى قبل الإسلام رسلاً ليعيدوا الناس إلى جادة الصواب وإلى الدين الصحيح، وبما أن محمداً صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء فلا نبي بعده؛ فقد انقطع خبر السماء، وبقي دور العلماء في تصحيح ما فسد من العلم لإرشاد الناس وتصحيح معتقداتهم، بوصفهم ورثة الأنبياء.

وهذا ما تصدى له حجة الإسلام أبو حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال وكتابه القسطاس المستقيم وبعضًا من فصول إحياء علوم الدين. وقد جَعلتُ له فصلاً مستقلاً حاولت تبسيطه ليكون سهل الفهم والتداول بين طلبة البحث العلمي، وقد كنت أطلب من طلبتي الاطلاع عليه، حتى قال لي أحدهم: لولا بسّطته لنا وشرحته، وهذا ما فعلته.

لقد أثبت الغزالي بعد رحلة دامت عشر سنوات بين الفرق والمذاهب المختلفة والتي ادعى كل منها أنه يملك الحقيقة؛ بأن السلامة تكون بالعودة إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ثم لا يمنع قياس أي شيء آخر عليهما اجتهاداً؛ فما وافقهما أُعتمد عليه وما خالفهما تُرك، وقد أرسى الغزالي في كتابه المذكور قواعد هامة يمكن البناء عليها منعًا للزلل والخطأ.

ثم جعلت فصلاً مستقلاً لحوار دار بيني وبين ملحدة ذات منصب علمي رفيع، لخصته بأربعة عشر جدلية رددت عليها مستعينًا بقواعد البحث العلمي لأنقض غزل تلك الملحدة، وقد وافق كثير مما ذهبت إليه منهج الغزالي رحمه الله وأحسن إليه.

إن كل من يدعي الإيمان؛ سيُفتن لقول الله تعالى: أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ (العنكبوت: ٢). **فمن هم الناجون؟**

سؤال سنجيب عليه في بحثنا هذا بأسلوب منهجي علمي، مستعينين بالله تعالى؛ ونبدأ متوكلين على الله تعالى أن يفتح علينا فتوح العارفين، وأن يُلهمنا ما فيه الخير.

الفصل الأول

طرق إدراك الحقائق بالمنهج القرآني

الإِدراك[1] هو بلوغ الشيء غايتَه وهو أول الوصول إليه، والحقِيقَةُ[2] هي الشيءُ الثابتُ يقينًا التي لا تتغير بتغير الظروف، وإدراك الحقائق طريق الإيمان مؤداه إدراك حقيقة الإيمان يقينًا دون أدنى ريب.

ذكر الحُميري في شمس العلوم[3]؛ أن الإِدْرَاك هو اللحوق، قال الله تعالى: **حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ**، وقال أيضًا: **إِنَّا لَمُدْرَكُونَ**، أي ملحوقون، وأدرك الغلامُ والجاريةُ: إِذا بلغا سن الرشد، والإِدراك: بلوغ الشيء إِناه وغايتَه.

قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب – بل أدرك – (**عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ**)، والباقون (**ادَّارَكَ**) أي تدارك.

وذكر أبو العزم في معجمه (الغني)[4]؛ بأن (دَرَكَ) مصدر (أَدْرَكَ)؛ أي اِسْتَطاعَ إِدْرَاكَ خَبَايَا الأُمُورِ بفَهْمَهَا وَتَمْيِيزَ دَلالَتِهَا.

أما عند خبراء التربية[5] فإن الإدراك؛ مجرد رؤية الكلمات أو التلفظ بها دون فهم ما تعنيه أو تدل عليه.

---

[1] شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميري، ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م
[2] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م
[3] مرجع سابق، الحميري.
[4] الغني، عبد الغني أبو العزم، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م
[5] قاموس التربية الخاصة، د. عبد العزيز السيد الشخص، د. عبد الغفار عبد الحكيم الدماطي

لقد أنزل الله تعالى سورة سُميت بسورة (الكافرون) وصفها المفسرون بالمفاصلة؛ لأنها تفصل بين أهل الإيمان وأهل الكفر، ليدرك جميعهم القطع لكل صلة وشبهة بين الإيمان والكفر وأهلهما.

كما قطعت سورة (الإخلاص) الشك باليقين بوحدانية الله من كل ما نُسب إليه من ولد وشريك وغير ذلك؛ مما يتصف به الخلق من نقص، ليدرك الخلق جميعهم كمال الله تعالى المستغني عنهم؛ بينما النقص الموجود فيهم يجعلهم لا يستغنون عمن خلقهم.

وبناء عليه، لا يُعتدُّ بكثرة المجادلين في الحق لأن كثرتهم لا تُغني عن الحقيقة شيئًا؛ كقوله تعالى: (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ**)، (**وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ**)، (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**)، (**وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ**)، (**وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**)، (**بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ۖ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**)، (**وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ**).

إن أول ما تلقاه آدم عليه السلام – وهو أول البشر – علمٌ لقنه الله إياه، وبذلك فإن مصدر المعلومات الأولية عند أول إنسان هو ما تلقاه من ربه، وليس كما يَدّعي أهل الكلام بأن أوليات العلم هي البديهيات التي لا نقاش فيها وبها يُحررون أغلب العلوم.

والإنسان من ذرية آدم أبو البشر يأتي لهذه الدنيا لا يعلم شيئًا؛ قال الله تعالى الخالق البارئ: وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (النحل: ٧٨).

ثم دعاه خالقه لمشاهدة آلائه ونعمائه من حوله بعدما خلق له حواسه كما في الآية السابقة لتكون وسيلة الإدراك:

- قال تعالى: أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (النحل: ٧٩).
- وقال تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (النحل: ٨٠).
- وقال تعالى: وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ (النحل: ٨١).

وقد تكررت مثل هذه الآيات بكثرة في كتاب الله عز وجل.

ومن جهة أخرى؛ فإن نهاية كل إنسان، هي الوفاة والموت حتمًا وهذا حاصلٌ بالمشاهدة يقينًا؛ عند ذلك يُنتزع منه العلم فلا يأخذ معه شيء، يقول المولى عز

وجل: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ (النحل: ٧٠).

ولا يصح أن يكون الإنسان إمعّة؛ وقد نبَّه صلوات ربي وسلامه عليه؛ الإنسان ألا يكون تابعًا خاوي الحيلة، وهذا يُرتب عليه البحث على طريق الإيمان بحثًا حقيقيًا يُوصله لكُنهه فيُمسك به ولا يتركه؛ لأنه المنجي من بلاءات هذه الدنيا واختباراتها وفتنها، قال المولى عز وجل: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: ٢).

المبحث الأول - طرق انتقال العلم

لابد من نقطة بدأ فيها كل شيء، فهذا هو منطق التفكير البشري، ليكون التساؤل:

- أين بدأت رحلة العلم؟
- من علّم من؟
- كيف انتقل العلم بين المخلوقات؟

هذه أسئلة يحتاج الإنسان أن يُعمل نظره فيها لإشباع رفع جهله، وشغف اطلاعه، وفي هذا المبحث نحاول بيان ذلك باستقراء كتاب الله تعالى وتدبره؛ فقد قَصّ علينا رب العباد قَصصًا لم نكن لنعلم عنها لولا تفضله علينا بذكرها في قرآنه الكريم، أو بتعليمها لرسوله الخاتم محمداً صلى الله عليه وسلم؛ منها ما فيه ذكر أحداث جرت قبل خلق الإنسان نفسه؛ بل قبل خلق أي أحد من الخلق كائنًا من كان.

تعليم الملائكة

حكى لنا ربُّ العالمين عن حواره مع الملائكة عليهم السلام لنتلمس مبدأ العلم وبداية انتقاله. وقد قصّ الله علينا الحدث الذي لم نكن لنعلم عنه شيئًا لولا أن تفضل علينا بذكره، قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (البقرة: ٣٠).

حوار لم نشهده نحن البشر، وكان من الممكن أن يبقى دون علمنا، لكن الله تعالى أراد لنا أن نشهده كخبر منقول من خلال رسوله أمين الوحي جبريل عليه السلام من الملائكة، ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام من البشر.

يفيد هذا الخبر بأن الله هو بادئ القول، لأنه عليم كما وصف ذاته العلية في غير موضع. والقول موجهٌ للملائكة عليهم السلام وقد أخبرهم عزّ وجلّ؛ بأنه جاعل في الأرض خليفة، وكما عَلمَ الملائكة وما تعلموه من ربّ العزّة أجابوه ظنًا منهم بأن القضية محصورة بالتسبيح والتقديس وهم قائمون بهذا، فكان جواب الله تعالى بأن عنده من العلم ما لا يعلمونه؛ فهم متلقون للعلم عاملون بما علموه، وقد خلق الله تعالى الملائكة دون حاجات تخصهم دونًا عن غيرهم من الخلائق فلا يجوعون ولا يعرون ولا يحتاجون.

إذًا بدأ الأمر بالقول والتلقين من عليم، ثم محاكمة للقول، واستنباطٍ من قبل ملائكة علّمهم العليم من علمه قياسًا على علمهم، فلم يصيبوا بما استنتجوه. قال تعالى: **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (٣٠)؛ دلّ ذلك على أن الله قد أعطى ملائكته الكرام علمًا محددًا لا اجتهاد فيه، واختبر الله تعالى علمهم المحدود؛ بعلم آدم المحدود به؛ بالمقابلة والسؤال بقوله تعالى (**أَنبِئُونِي**). لذلك لّما أنبأهم بخلق آدم عليه السلام ليكون خليفة في الأرض، وكان الله قد أعلمهم بما يمكن أن يفعله ذرية آدم عليه السلام من البشر،

سارعت الملائكة قائلين – حسب علمهم الذي يعلمونه –: **أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ**، فقال لهم عزّ وجلّ: **إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**، ويكأن قضية العلم ومدى حصوله للمخلوقات من ملائكة ومن هم دونهم من المخلوقات قضية جدلية، فالعقل يقرر واللسان ينطق بما يريده العقل استناداً للقاعدة المعرفية التي يعلمها هذا الكائن.

لقد جرى كل ذلك الحوار بين خالق عزيز وبعض خلقه من الملائكة الكرام، قبل خلق آدم عليه السلام.

تعليم آدم عليه السلام أول البشر

بعد أن خلق الله تعالى آدم عليه السلام أبي البشر وهو أول مخلوق إنسي كما أنبأنا الله تعالى في غير آية كريمة، بدأت مرحلة تعليمه، فالتعليم عملية لازمة للمخلوق حتى يرتقي؛ وكلما عَلِم الإنسان أكثر زاد ارتقاؤه ما أخلص عمله، قال تعالى: **قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ** (الزمر: ٩)؛ فالاستواء غير محقق بين من يعلم وبين من لا يعلم؛ بما أوتوه من عقلٍ مدركٍ مميِّزٍ ثم بما تزودت به عقولهم من معلومات قابلة للتذكر.

لقد تمت العملية التعليمية لآدم عليه السلام مباشرة من الله عز وجلّ الذي قال عن ذلك: **وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا**، ولربما المقصود كل ما يلزم بني البشر من علم كالصور والأشكال واللغات ... الخ[1].

[1] هذه المرحلة نفسها تتم بالتعلم العميق للآلة لإكسابها الذكاء الصنعي

ثم اختبر الله تعالى ملائكته بأن طلب منهم أن يُخبروه عن الأسماء التي علّمها لآدم عليه السلام؛ ليريهم أثر العلم المحدود نسبيًا، قال تعالى: **ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** (البقرة: ٣١).

فكان رد الملائكة عليهم السلام بأن أعلنوا محدودية علمهم كما تلقوه من ربهم عزّ وجلّ، وذلك بقول الله تعالى: **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** (البقرة: ٣٢) وقد ردوا كلَّ العلم – بصيغة اسم الفاعل – لله عزّ وجل وأضافوا صفة الحكيم له للدلالة على أن العلم يحتاج الحكمة، وأي انفصال بينهما مؤداه إشكال نتعرض له لاحقًا.

ثم طلب الله تعالى من آدم عليه السلام أن يُنبئ الملائكة الكرام بأسمائهم أي بما تلقاه من رب العالمين من بيانات: **قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ** (البقرة: ٣٣)، لقد قال المولى عز وجل لملائكته مُذكرًا إياهم بقدرته: **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ**، والقول يكون من عالم بالشيء مدركٍ لمعناه – تعالى الله عن التشبيه –، والإدراك (كما ذكرنا) هو بلوغ الشيء إِناه وغايتَه، فأضاف الله تعالى علم الغيب لذاته العليّة ليعلم المخاطَب بأنه تعالى محيط إحاطة كاملة بكل شيء، في كل مكان فهو المتحكم الآمر الناهي.

هكذا بدأت عملية نقل العلم، فالعليم جلّ في عُلاه هو العالِم لكل شيء، قضى خلق الخلق، وعلّمهم من علمه حسب حكمته جلَّ وعلا، فللملائكة علمهم،

وللإنسان علمه، ليقوم الكون كما رُسم له؛ فلا يخرج شيء عن ذلك قيد أنملة. وهذا حال باقي الخلائق كالجبال والسماوات والأفلاك والأرضين والحيوانات والنباتات وكل شيء، ومن ذلك سؤال الله تعالى بعض مخلوقاته حَمل أمانة القيام بإعمار الكون؛ فاعتذرت السموات والأرض وحملها الإنسان، قال تعالى: **إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**، وبذلك تُرك الاختيار للإنسان دون الخلق أجمعين، وصفه ربه بأنه كان ظلومًا جهولاً، قال ابن عباس[1]: ظلومًا لنفسه جهولاً بأمر الله وما احتمل من الأمانة.

التعليم بإقرأ

إن الفعل الأول الذي طلبه الله تعالى من رسول الهدى محمد صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل عليه السلام أن (**إقرأ**)، أورد البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: ... اقْرَأْ، قالَ: ما أنا بقارِئٍ، قالَ: فأخَذَنِي فَغَطَّنِي حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، قُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهْدَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ، فَقُلتُ: ما أنا بقارِئٍ، فأخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أرْسَلَنِي، فقالَ: اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ ...

وهذا فعلٌ اعتاده الناس أن يكون قراءة لما هو مكتوب، فكان ردّ المصطفى صلى الله عليه وسلم ما أنا بقارئ – فهو أُميٌّ لا يعرف القراءة – كررها جبريل عليه ثلاثًا؛ ثم

[1] لباب التأويل في معنى التنزيل (تفسير الخازن)، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير الخازن، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م، ج ٥، ص ٢٨٠.

تابع عليه السلام تلاوة الآيات المنزلات؛ ليدرك رسول الله عليه الصلاة والسلام أن القراءة تكون شفاهةً كما تكون من كتابةٍ؛ فقرأ كما علّمه جبريل عليه السلام، فكان قرآنًا كريمًا يقرؤه المسلمون العرب ويقرؤه من لا يجيدون العربية فيقرؤونه رسمًا، ويحفظونه جميعًا، ويجوّدون تلاوته آناء الليل والنهار.

إن القراءة هي أداة العلم وسبيله، ويكأنّ الله يقول للناس تعلّموا؛ فالعلم سبيل المعرفة التي تُوصل الإنسان إلى معرفة خالقه والإيمان به؛ فلا يكون العالِم عالِمًا إلا إذا أذهب جهله باكتساب المعرفة، وقد جعل الله تعالى جهات الاكتساب متعددة؛ فقد أعطى مخلوقاته حواسًا لتشعر وتتفاعل مع محيطها البيئي وجعل خلف تلك الحواس سيالات عصبية تنقل الاحساسات إلى مركز الإدارة وهو العقل؛ ليُحاكم ويُقرر ثم يُعيد الأمر إلى الحواس لتتخذ الإجراء المناسب.

الحواس أدوات تعلّم

تختلف درجة الحواس وتختلف أنواعها بين المخلوقات؛ فهي ذات قرون استشعار عند بعض الحيوانات، واستشعار صوتي عند غيرها، واستشعار لوني وبصري عند غيرها، وقد يكون الاستشعار بالاحتكاك، أو بالقوة، ... الخ، وبعض الكائنات لديها أكثر من حاسة مُميِّزة، كما يمتاز بعضها بحواس مرهفة جداً أو دون ذلك. وكذا حال الإنسان ففيه ما في غيره من الكائنات؛ فجميعهم خلق الله تعالى، خَلقَهم وجعل لكل منهم دوراً في هذه الحياة قرره بذاته العليّة، سواء كانوا مجرات أو نجومًا وأفلاكًا، أو دودة في باطن الأرض أو سمكة في قعر النهر أو حوتًا في باطن

البحر، أو جبلاً شاهقًا أو سماء وارفة أو ريحًا صرًا ... وهو القائل سبحانه وتعالى: **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** (المدثر: ٣١).

العقل والتعلّم بالمحاكاة

إن لمركز القرار عند كل كائن طبيعته التي تخصه، والتي لم يكتشف العلماء من البشر عنها إلا القليل القليل رغم ما يدعيه البشر من تطور وتقدم، فقد أخبرنا الخالق عزّ وجلّ بأن كثيراً من الخلق هم أمم أمثالنا، ولكن لا نفهم تسبيحهم وأفعالهم ولغاتهم وبالتالي مكوناتهم الخَلقية. قال تعالى: **وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم** (الأنعام: ٣٨). وقال تعالى: **تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** (الاسراء: ٤٤).

لقد حكى الله تعالى لنا الحديث الذي دار بين النمل، وأسمعه لنبيه سليمان عليه السلام عندما توقف بجيشه قرب مسكنهم، قال تعالى: **حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ** (النمل: ١٨).

فأنّى لنملة أن تقول؟ والقول فيه عقل وفهم.

وأنّى للنمل أن يفهم مقالها؟ فكيف عقلوه وابتعدوا عن طريق الجيش؟

وكيف لنملة أن تدرك أن بنيتها زجاجية؛ فالتحطيم في لغة العرب يكون للزجاج.

وأنّى للنمل أن يعلم كيف يبني بيوته؟ وأن ينتقي من المؤن ما يغذيه ويكفيه بحسب البيئة التي هو فيها؟ وكيف يتنقل ويتحرك بحثًا عن أشيائه من طعام وغيره؟ وكيف يعود لبيته؟

ولشدة دقة خوارزمياته الحاكمة لسلوكه صار عند أهل الاختصاص ما يُعرف بخوازرمية النمل Ant Algorithm ومثيلها خوارزمية النحل Bees Algorithm.

المبحث الثاني - طرق كسب العلم الغيبي

قال الله تعالى مُثبتًا وحدانيتُه في الخلق: **مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ** (النبأ: ٥١)، والإنسان كائن من مخلوقات الله تعالى وهو كائن ضعيف كما وصفه خالقه: **وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا** (النساء: ٢٨)، وهو لم يشهد خلق الكون ولا خلق نفسه؛ فكل ذلك بالنسبة لهذا الكائن الضعيف مسائل غيبية، لا ينفع في التحقق منها المنهج التجريبي، بل لابد من خبر الخالق نفسه الذي يعلم كيف خلق تلك المخلوقات. ويُعتبر الحدس والتخمين في إثبات تلك الحقائق مضيعة للوقت – كما سنأتي على مثال في الفصل الثالث بعد ردنا على ملحدة أثارت جدليات بهذا الخصوص –.

ذكر الطنطاوي في تفسيره أن: الغيب مصدر غاب يغيب، وكثيراً ما يُستعمل بمعنى الغائب، ومعناه: ما لا تُدركه الحواس، ولا يُعلم ببداهة العقل.

لقد جاءنا الخبر اليقين متواتراً من الخالق نفسه في قرآنه العظيم الذي نزل به الروح الأمين: **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** (الشعراء: ١٩٣)، إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم والذي بدوره أبلغه للناس بوصفه رسول الله.

الحقائق العلمية اليقينية في سورة الفاتحة

سورة الفاتحة هي السورة الأولى ترتيباً في القرآن الكريم، قال تعالى: **بسم الله الرحمن الرحيم * الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ**

نَسْتَعِينُ* اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (الفاتحة: ١-٧).

إنها سورة تُرسي الحقائق العلمية اليقينية؛ بأن الله هو رب العالمين وهو محمود ورحمن رحيم، وهو مالك يوم الدين؛ لذلك يعبده المؤمنون بتلك الحقائق المذكورة، وحَقٌ لمن هذه صفاته أن يُعبد، وإذا عملوا استعانوا به لقدراته غير المتناهية، واستعانوا به للهداية للطريق المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، لأن الطريق المستقيم هو أقرب الطرق للسالكين العاملين، بينما الطرق المعوجة الملفوفة مؤداها إضاعة لجهد العامل ووقته، وقد تعاقب الناس منذ أول الخليقة على تلك الاستقامة الموصلة للحق، استثني منها الذين غضب الله عليهم لكفرهم وضلالهم، فالكفر والضلال هما عكس الإيمان الذي يزيده العلم يقيناً؛ بينما يزيد الجهل الكفار والضالين بُعداً لاتباعهم الطرق الملتوية كثيرة الالتفاف، وهذا أشبه بمن فقد البوصلة وضاع في خضم متاهةٍ حتى صَعب عليه المخرج.

فكيف للإنسان أن يهتدي لطريق الإيمان الصحيح؟ وكيف له أن يتجنب مسالك المغضوب عليهم والضالين حتى لا يهوي في العذاب المهين؟

إذاً لابد لكل إنسان أن يبحث عن الطريق الصحيح، ولا يَسلم اختياره في التقليد؛ فقد يضلّ بضلال من اتبعه، كما لا ينفعه عذر ولا سبيل.

عناصر الإيمان والضلال في سورة البقرة

تأتي السورة الثانية ترتيباً في القرآن الكريم وهي سورة البقرة لتشرح الإيمان والضلال بأساليب علمية مزجت بين المنهجين العقلي والتجريبي بمختلف مداخلهما على مرّ العصور.

فالآية الثانية من السورة تخبر أن القرآن الكريم لا ريب فيه والريب أدنى درجات الوهم الذي بدوره أدنى درجات الشك وهو أدنى درجات الظن المُورث للوهم. وتقدم هذه الآية تحدٍ مفتوح لكل قارئ يدّعي العلم والمعرفة ممن يرغب بنقد هذا الكتاب شكلاً أو مضموناً، وهذه أعلى درجة ثقة يمكن أن يستوعبها العالمون، وستأتي لاحقًا آيات تضع هذا التحدي على المحك، قال تعالى: **الم*ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** (البقرة: ١-٢).

ثمرات الإيمان بالغيب

إن صفات المتقين أنهم مؤمنون بالغيب، مع أن الغيب غائب عن المشاهدة الحسية؛ لكن المتقين استنبطوه بعقولهم وبصيرتهم بعدما صدّقوا الخبر الذي أبلغهم إياه رسوله صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى جلّ في علاه؛ حتى صار كالشاهد المشاهد عَيانًا. وأثمر ذلك بأن:

- أورثهم الإيمان؛ عملاً وَجب عليهم، كالصلاة، وذِكر الله شكرًا وحمداً؛ طاعة له لصفاته العليّة التي ذكرتها سورة الفاتحة.
- أنفقوا مما رزقهم خالقهم، وهذا فيه جانب إيماني حيث أنهم علموا غيباً أن الرزق من الله تعالى بوصفه الرازق، وعملوا بأن أنفقوا من ذلك الرزق؛ كما

أتت بذلك آيات في سور عديدة، قال تعالى: **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ** (البقرة: ٣).

- أورثهم العلم الذي كان سبيل الإيمان عندهم؛ إيمانًا جاءهم خبره نقلاً؛ جيلاً عن جيل، وذكره القرآن الكريم توثيقًا صحيحًا غير محرّف.
- أورثهم العلم إيمانًا بحقائق يقينية بأمور غيبية أُخروية جاءت تفاصيلها في آيات تاليات في سور عديدة، قال تعالى: **وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ** (البقرة: ٤).

لذلك وصفهم ربهم؛ بالمهتدين المفلحين لثمرة تفكيرهم الناجم عن علمٍ تحول إلى عملٍ صالح مشهود لهم، قال تعالى: **أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** (البقرة: ٥).

المخادعة والإفساد

إذًا يحتاج الإيمان علمًا، أما المخادعة والإفساد؛ فيغيب عن فاعلها العِلم، ويكون حال المخادع والفاسد عدم الشعور بذلك، وكلمة الشعور توضح أنه متعلق بالحواس؛ فهو تجريبي مما قد يُعطّل الاستنباط الذي هو ظيفة العقل، قال تعالى: **يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ** (البقرة: ٩)، وقال: **أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ**

النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ (البقرة: ١٢-١٣).

أما نتيجة المخادعة والإفساد والسفاهة فهي الضلال عن الحقيقة وخسارة العملية التي شبهها الله بالتجارة الخاسرة؛ لأنهم اشتروا وهمًا فأضاعوا الثمن الذي دفعوه بما تضمنه من ربح، قال تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ** (البقرة: ١٦).

ثم ضرب الله مثلاً بما فعلوه، والمثلُ أداة تجريب لمنهجٍ تجريبي مؤداه: أن من عطّل الاستنباط للوصول إلى حقيقة الإيمان واكتفى بما وصلت إليه تجاربه المحدودة أذهب مفعول حواسّه من نظر وسمع وحس، قال تعالى: **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ** (البقرة: ١٧-١٨).

إثر ذلك عاد الخطاب التذكيري للناس عامة بأن اعبدوا الخالق الذي خلقكم وخلق البيئة لعيشكم فيها، قال تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (البقرة: ٢١-٢٢).

ثم يأتي التحدي العلمي لمن كفر وضلّ بعد أن أثبت الله البراءة لكتابه من كل ريب، فمن استطاع أن يأتي بمثله فليفعل، وإلا فالعقاب الشديد لما زعمه وتصدى له، قال تعالى: وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (البقرة: ٢٣-٢٤).

جزاء الإيمان بالغيب

إن الذين آمنوا بالغيب وعملوا الصالحات جزاؤهم الجنات، وهذا الجزاء أيضًا هو خبر صادق وصلنا متواترًا عن الله تعالى نقله جبريل الوحي عليه السلام من خلال رسول الله صلى الله عليه وسلم الصادق قبل البعثة وبعدها، قال تعالى: وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقرة: ٢٥).

ضربُ المثل منهج تجريبي

ضربُ الله تعالى مثلاً بعوضةً؛ مكتفيًا بأضعف مخلوقاته دلالة على عظمته جلّ في علاه؛ مثلٌ يمكن تتبعه بالمشاهدة الحسية فيُقاس عليه، وإن نقص علم السامع للمثل أو سَعته هي التي تزيد يقينه يقينًا وتدفع الشك وما دونه؛ وقد أتت الاكتشافات العلمية لتُظهر مدى عظمة هذا المخلوق الصغير جدًا بقدراته العظيمة،

ويعلم المختصون أن المبتكرات كلما صغر حجمها زادت تقنياتها؛ فكيف إذا صغر حجمها وازدادت وظائفها؟.

لذلك إن الذين كفروا وبسبب جهلهم أي لعدم طَرقِهم للعلم عُميّت عليهم الحقيقة فضلوا، أما من آتاه الله العلم والحكمة فقد زاده المثال هدى بأن زاد يقينه ثباتًا، قال تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ** (البقرة: ٢٦).

مثلٌ آخر ضربه الله تعالى لخلقه الذين يشهدون بأمّ أعينهم كل يوم ولادات جديدة وموت آخرين، كدليل مشهود بالعين والحس ليساعدهم على الإيمان، حيث تنتقل الآية إلى الاستنباط بأن هذا الذي تشهدونه سيتكرر بالبعث يوم القيامة وسترجعون إلى الله الخالق البارئ، ويترك المثل المضروب التساؤل مفتوحًا لكل من قرأ الآية المكتوبة – والقراءة أداة تعلّم –، أو بالمشاهدة والمعاينة – وهذه أيضًا أداة تعلم –، قال تعالى: **كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** (البقرة: ٢٨).

العلم الغيبي مصدره الخبر اليقيني

إن مسرح العقل وميدانه هو العلوم التجريبية حيث تكون مادة البحث بين يديه أما العلم الغيبي، فلا يمكن أن يكون حقيقة علمية لاستحالة التحقق منه والتجربة عليه.

ومثاله[1] أن الله تعالى أخبرنا أن الإنسان الأول خلقه سبحانه وتعالى من سلالة من طين، ومرة أخبرنا أنه من تراب، ووصف الطين بأنه حمأ مسنون، ومرة من صلصال من فخار، وهذه كلها مراحل صنعية؛ فالتراب إذا جاء عليه الماء صار طيناً والطين إذا بقي مدة حتى يعطب وينتن؛ صار حمأ مسنوناً، وإذا تُرك صار صلصالاً كالفخار؛ فأنّى للعقل أن يتحقق من هذه الصيرورة بالتجربة بنفسه؟

إن الله تعالى يعرض دليلاً مُحسِّناً يجعله دالاً على أمر غيبي؛ فنحن لا ندري كيف جاءتنا الحياة، لكننا نعلم يقيناً بأننا نموت؛ فجُعل الموت ظاهرة حسية ووسيلة للتصديق بالظاهرة الغيبية التي لم نرها. فإذا مات الإنسان فأول ما يخرج منه الروح التي أودعها الله فيه، ثم يتصلب جسده الميّت، وهذه هي الصلصالية أو الفخارية، وهي المرحلة الثالثة التي أعلمنا بها الله تعالى، بعدها ينتن جسده ويتحلل، وهذا هو الحمأ المسنون، ثم تتبخر المائية التي في جسده وتتحول العناصر الأخرى لتراب، وهذا مشهد يشهده الناس. لذلك إذا قال الله تعالى بأني خلقت الإنسان من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ومن فخار ثم نفخت فيه الروح؛ فَهمنا كيف تذهب منه الحياة بطريقة العود على البدء، يقول تعالى: **كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۚ** (الأنبياء: ١٠٤)؛ وبذلك يَسهل فهم كيف جاءتنا الحياة؛ لنتوصل بالموت إلى صدق الله تعالى فيما أخبر فيه عن الحياة.

قال الله تعالى: **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ** (الملك: ٢)؛ والأولى (حسب فهمنا) أن يقول: خلق الحياة والموت؛ لكنه قال الموت والحياة؛ لأن الموت يُمكن لحظه

[1] مقتبس من خواطر الشعراوي، سورة النبأ.

ومشاهدته، ومن وقائعه وترتيبه نتوصل إلى وقائع الحياة بعكس الترتيب والمراحل؛ إذًا فالموت منفذٌ لمعرفة كيفية خَلقِنا.

وبذلك نستنج بالمشاهدة والتجربة مستعينين بالاستنباط العقلي على حقيقة الغيب، لكن بعد أن نُسلّم بخبر الله تعالى عنه، **وعليه فإن العلم الغيبي لا يكون إلا بالخبر الصادق**.

هذه الإشكالية وصفّتها آيات في سورة الإسراء، ليس في الإيمان الغيبي بل بتصديق كون الرسول مرسلٌ من الله تعالى، فساق المشككون حججًا حسيّة تعينهم على الإيمان بالرسول عليه الصلاة والسلام، أي أنهم استخدموا المنهج التجريبي الحسي للدلالة على صدق تشكيكهم، فقالوا:

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا * أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا * أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا * أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا * وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا * قُل لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا * قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا

(الإسراء: ٩٠-٩٦)

لقد صَعب عليهم الاعتقاد بأن الرسول مكلّف من الله تعالى، لأن ذلك يحتاج إيمانًا بالله وملائكته غيبيًا، ولا يكون محسوسًا لاحتياجه للتصديق بالخبر، ويصعب على البعض التسليم به بسبب طريقة الوصول للاعتقاد بالأدلة الحسية، وكما ذكرت الآيات الكريمة فقد طلبوا من الرسول الذي لم يؤمنوا به:

- أن يُفجر لهم ينبوعًا من الأرض.
- أن يكون له جنة فيها مما لذّ وطاب.
- أن يُسقط عليهم كسفًا من السماء كما وعدهم.
- أن يأتيهم بالله تعالى أو بملائكته.
- أن يكون له بيت مزخرف.
- أن يرقى بالسماء أمامهم، ولن يكتفوا بهذا الدليل بل أن يأتيهم أيضًا بكتاب يقرؤونه.

لذلك لا يفيد المنهج التجريبي بتحقيق الإيمان بالله تعالى لمحدوديته عن استيعاب الأحداث الغيبية.

القضية الايمانية والقضية الكونية

حينما[1] يتكلم الله بقضية إيمانية (قرآنية)؛ فلابد أن تأتي القضية الكونية مصدقة لها، يقول تعالى: **وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا * فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ**

[1] خواطر الشعراوي، سورة الاسراء

شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا * ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (الاسراء: ٤-٦).

تشترط القضية القرآنية أن يكون الموعودون بالنصر (عباداً لله) لتتحقق القضية الكونية؛ فبعد أن يُعطى اليهود المَدد بكثرة الأموال والولد وكثرة النفير كما يُنجدهم الدعم الدولي ويمدهم قوة وبأسًا؛ يُحكم الله قضيته، ويقول لليهود: إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُوءُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (الاسراء: ٦). إذاً البشرى بدخول المسجد هي لعباد الله وهذا تنبيه للمسلمين ليعودوا عباداً لله؛ فالدخول الأول كان في عهد الفاروق عمر رضي الله عنه، والثاني مشروط بعودة المسلمين عباداً لله وهذا وعد شرعي حتى تتحقق القضية الكونية بالنصر والدخول.

والقضية القرآنية مرتبطة بالإيمان، كما أن تحقق القضية الكونية مرتبطة بتحقق القضية القرآنية، ووعد الله لا يتخلف أبداً.

المبحث الثالث - طرق كسب العلم الأولي

إن ما علَّمنا إياه الله تعالى هو علم أولي وضروري، فهو الربُّ المربي لعباده والمدبر لهم، فبعد أن خلقهم وأوجدهم في هذا الكون، علّمهم ما يلزمهم بداية، وأعطاهم العقل ميزة لهم عن باقي مخلوقاته وترك لهم حرية الاختيار وجعلهم مسؤولون عن خياراتهم حيث سيحاسبهم عنها حسابًا دقيقًا.

أما عن كيفية كسب العلم الأولي؛ فهي كالآتي:

كسب العلم بإيحاء من الله لرسله

هذا تعليم خاص بالأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم، وكذلك لبعض مخلوقات الله.

والإيحاء لغة[1]؛ من أَوْحَى إليه وله؛ أي أَشار وأَومأَ، قال تعالى: **وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ** (الأعراف: ١١٧)، بمعنى: كلَّمه بكلام يخفَى على غيره، أو أَمَرَه، أو بَعثه، أو أَرسل إليه، أو أَلهمه، ومثال ذلك:

- سخّر الله لموسى عليه السلام العصا لأشياء عديدة، ومنها أن أوحى إليه ليضرب بها الحجر لتفجير ينابيع يعلم منها الناس مشاربهم، وانقسم الناس بعدد تلك المشارب، قال تعالى: **وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ** (الأعراف: ١٦٠).

[1] ، مرجع سابق، المعجم الوسيط

- والعصا ذاتها استخدمها موسى عليه السلام ليفتح طريق النجاة له ولقومه في البحر بإيحاء من الله، قال تعالى: **وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ** (طه: ٧٧).
- وأوحى الله تعالى إلى نبيه نوح عليه السلام كيفية صناعة السفينة، قال تعالى: **فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا** (المؤمنون: ٢٧).
- وأوحى الله تعالى إلى النحل يُعلمها أين تُقيم مساكنها وأعشاشها، قال تعالى: **وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ** (النحل: ٦٨).

كسب العلم بتعليم الله تعالى لرسله

يُعلّم الله تعالى أنبياءه ورسله لأنهم سيكونون معلمي الناس. ومثال ذلك:

- إقراء القرآن الكريم لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم؛ بواسطة الملَك جبريل عليه السلام شفاهة، وهو بدوره صلى الله عليه وسلم أقرأه للناس شفاهة كما تعلّمه.
- تعليم الرسل والأنبياء مناسك العبادة؛ قال الله تعالى على لسان إبراهيم واسماعيل عليهما السلام: **رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ** (البقرة: ١٢٨).
- تعليم الله تعالى للخضر عليه السلام، قال تعالى: **وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (الكهف: ٦٥).

- تفهيم الله الحكم والقضاء لداود وسليمان عليهما السلام: **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ** (الأنبياء: ٧٨-٧٩).
- إيتاء العلم لداود وسليمان عليهما السلام: **وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ** (النمل: ١٥)
- تعليم داوود عليه السلام صناعة مستلزمات الحرب: **وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ** (الأنبياء: ٨٠).
- تعليم سليمان عليه السلام منطق الطير: **وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ** (النمل: ١٦).

إن قول الله تعالى في نهاية الآية ٢٨٢ من سورة البقرة: **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**، لفتة كريمة من الله تعالى إلى أنه يُعلّم عباده؛ فهو ربهم الذي يرزقهم، ويربيهم، ويؤمن لهم مستلزمات عيشهم في هذه الأرض؛ فالواو استئنافية والفعل مضارع يفيد الاستمرارية، ولفظ الجلالة فاعل لأنه جلَّ جلاله؛ المعلّم.

أما ختم الآية بقوله تعالى: (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)؛ فاللهّ لفظ الجلالة مبتدأ، لأنه تعالى مُبتدِئ كل علم وكل أمر، و (عَلِيمٌ) خبره تعلق به الجار والمجرور، أما (شَيْءٍ) فمضاف إليه لأنه تعالى خالق كل شيء لا يغيب عنه أي شيء، قال تعالى: لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ(سبأ: ٣)

والآية ٢٨٢ من سورة البقرة هي أطول آية في القرآن الكريم، تسمى بآية المداينة أو الكتابة؛ فيها مراحل توثيق الديون وكتابته بتقنيات تمنع أي خلل قد يشوب عملية الائتمان ويضفي عليها الثقة اللازمة، مما يورث اليقين أو غالب الظن في الأسواق ويضبط بعض مخاطر الائتمان.

والآية نص قرآني فيه كلامٌ جزلٌ واضحٌ في كيفية التوثيق والكتابة وكذلك الرهن في الآية التي تلتها، وهذا تعليم من الله من خلال القرآن الكريم.

ويوجد في كتاب الله العديد من الآيات التي تُعلّم المسلم ما يلزمه ليعيش آمنًا على هذه الأرض والتي جُهزت لعيشه، قال تعالى: وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (الأعراف: ١٠).

وفي سورة النور مثلاً:

- تعليم لكيفية التصرف مع الزناة الذين اعتدوا على أعراض غيرهم بغير ما أحلّه الله تعالى، والزنا آفاته كثيرة سواء بما يُحدثه من أمراض جسدية ونفسية وخلط للأنساب؛ فضلاً عن الصراعات بين الناس بسببه.

- تعليم للعفو والصَفح وعدم قطع الصدقات عمن ظلمه غيره.
- تعليم لكيفية التصرف مع من قذف أعراض الناس بهتانًا.
- تعليم لكيفية دخول البيوت، سواء دخول أصحاب البيوت بيوتهم أو بيوت غيرهم، وهذه آداب راقية يسمو بها الناس إن فعلوها.
- تعليم لكيفية غض البصر، وآداب تخص الناظر والمنظور إليه لتربية السلوك الاجتماعي.

والتفاصيل كثيرة في هذه السورة وفي غيرها، وما ذكرناه أمثلة للدلالة على أن القرآن الكريم فيه علوم تربي سلوك الإنسان وتقوّمه ليَسعد في عيشه على هذه البسيطة فيما قُدّر له من العمر فيها، وفيه علوم تخص الفلك والأجرام السماوية، والبحار وما فيها، والفضاء وما بين السماء والأرض، ... إضافة لعلوم عديدة.

كسب العلم من رسل الله وأنبيائه

يُعلّم الرُسلُ الناس أحكام دينهم؛ كما تعلموه من الله تعالى.

- سأل إبراهيم واسماعيل عليهما السلام ربهما أن يبعث فيمن بعدهم رسلاً من كل أمة؛ يتلو عليهم آيات الله والتلاوة تعليم شفهي، ويعلمهم الكتاب وهذا تعليم من كتاب الله، وأن يزيدهم حكمة ليمنعهم من الجهل بالعلم والعمل ليحكموا عمل الأشياء بإخلاص، وأن يزكيهم ليصلحهم إصلاحًا لحالهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة: ١٢٩).

- سأل موسى عليه السلام الخضر أن يعلمه، قال تعالى عن ذلك: **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (الكهف: ٦٦)، وبهذا فإن اتباع المتعلم للمعلم وسيلة من وسائل كسب العلم. كما أن عملية التعليم كانت بالمشاهدة والملاحظة لما يفعله المعلم، وهذا ما جاءت به آيات وصفت الخضر وهو يَفعل، وموسى عليه السلام يُتابعه ويُلاحظ فعله.
- تَعلمُ الرسل عن الله ما لا يعلمه البشر، ومهمتهم التعليمية تبليغ ما علموه ونصح الناس، وَردَ ذلك على لسان أنبياء الله هود ونوح وشعيب عليهم السلام لأقوامهم: **أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** (الأعراف: ٦٢) ومثلها الآيات ٨٦ و ٩٣ من السورة ذاتها.

كسب العلم بمحاكاة المخلوقات

المحاكاة لغة[١] من (حَكَى) عنه الكلام؛ يحكي (حِكَايَةً)، و (حَاكَاهُ) إذا فعلَ مِثْلَ فِعْلِه، و (المُحَاكَاةُ) المُشَاكَلَةُ.

لذلك يُقصد بالمحاكاة فعل الشيء المشابه والمثيل، كمن ينقل عن غيره حكاية أو يرسم رسمًا. وبما أن الأشياء وُجدت في الكون من قِبل صانع خبير، وقد علّم الله أبو البشر آدم عليه السلام الأسماء كلها، فإن تعرّف الإنسان إلى محيطه البيئي سيأخذه إلى محاكاته؛ فهو يُشاهد الأشياء ثم يحاول تقليدها ومحاكاتها.

[١] مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، (٦٦٦ هـ - ١٢٦٨ م)

وعليه؛ فالمحاكاة شكل من أشكال التعلم وكسب للمعرفة من البيئة المحيطة التي ليس للإنسان يدٌ في إيجادها.

ويمكن التمييز بين عدة أنواع من المحاكاة:

- محاكاة الدماغ: ومثاله التعلم العميق Deep Learning، وهذا نوع حديث من التعلّم الذي يهدف إلى تعليم الآلة خوارزميات اتخاذ القرار بنفسها من خلال تعلم الأشياء IOT والتصرف دون تدخل بشري بشأن سلوكيات معينة. وهناك عصبونات صنعية متعددة الطبقات لتحقيق الذكاء الصنعي للآلة، وكل ذلك عبارة عن محاكاة للدماغ البشري في كيفية اتخاذ القرار والتمييز وما إلى ذلك.
- محاكاة الخلق وصناعة ما يماثلها: ومثاله اختراع الطائرة نقلاً عن تقنيات الطيور وأولها كانت تجربة عباس بن فرناس الذي دفع حياته ثمنًا لتعلم الطيران، والسيارة وما شابهها نقلاً عن تقنيات الدواب كالحمار والجمل ... الخ، وكذلك النحل والنمل والعنكبوت وغيرها من المخلوقات التي يعمل الإنسان على صنع ما يشابهها ليستفيد مما في تلك المخلوقات من مزايا، وكل ذلك محاكاة.

المبحث الرابع - طرق فساد العلم

الفساد هو الخلل والتلف والعطب والبطلان، وفساد العلم بطلانه وخلله وعطبه، حيث تتشوه الحقائق وتميل عن الحق ميلاً عظيمًا.

لقد أثبت القرآن الكريم فساد العلم عند الأمم السابقة؛ فقد جاءهم الحق من الله تعالى الذي أرسل رسله تترى للناس، فاستحكموا عاداتهم وتقاليدهم الفاسدة واستنكروا الحق الذي جاء به رسل الله عليهم السلام فكفروا بما جاءهم، وزوّروا كتب الله تعالى التي جاءتهم، وصفهم الله تعالى بقوله: **فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ** (البقرة: ٧٩).

لقد حرص كتاب الله تعالى على محاربة العادات والتقاليد التي سرعان ما يُحولها الناس الجُهّال إلى عقائد يؤمنون بها؛ فينحرفون عن الحق؛ فيُشركون مع الله غيره ويجعلون له الولد والزوج وهو أعلى وأجلّ من أن يكون له صاحبة أو ولد، قال تعالى على لسان الجن: **وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا** (الجن: ٣).

تشويه الحقائق والميل عنها

ويكأنَّ وظيفة كتاب الله تعالى ورسله عليهم السلام هو دحض العادات والتقاليد التي صارت مسلمات لدى الناس.

فالقول مدعاة للنفاق بأكثر من وجه: **وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ**

رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (البقرة: ٧٦)، وهذا سببه الجهل بعلم الله الذي وسع كل أحوال خلقه: أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (البقرة: ٧٧)

والقول يجب أن يسبقه علم وإلا كان سببًا للاختلاف: وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (البقرة: ١١٣).

ويحتاج القول دليل يثبت الحقيقة المزعومة وغير ذلك يكون من باب التمني: وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (البقرة: ١١١).

ولأن الإيمان ليس ظنيًا بل يقيني؛ فإن المنهج التجريبي لوحده غير كافٍ: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (البقرة: ١١٨).

العادات والتقاليد

قضية الإيمان يحسمها العلم الذي يُورث الحقيقة؛ فليس بعد الحق إلا اتباع الأهواء، وعليه فإرضاء الآخرين باتباعهم تقليداً؛ يُبعد المقلِّد عن رضى الله تعالى، وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ

اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (البقرة : ١٢٠) .

ويكون العلم بالتعلم وليس بالاتباع والهوى، والعلم الصحيح بمعنى الحقيقة العلمية؛ هو العلم الذي جاء من الله تعالى، الذي قال : ...**وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ** (البقرة : ١٤٥) .

إن العادات والتقاليد، وإرث الآباء والأجداد؛ ليست مصدر علمٍ حقيقي لما قد يخالطها من شك وريب، فقد يكون آباؤهم قد عطلوا عقولهم في إدراك الأشياء، فلا يهتدون ولا يكونون مستبصرين للطريق الصحيح، قال تعالى : **وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ** (البقرة : ١٧٠) .

وقد بدأ تشويه الحقائق بانجراف من يدّعون أنهم أهل علم بتحريف ما جاءهم من الله، أما وسائل التشويه؛ فهي عديدة :

- تزوير الحقائق التي يسمعونها : **وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (البقرة : ٧٥) .
- يعيدون إنتاج كتب باسم الله تعالى كذبًا وبهتانًا : **يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ** (البقرة : ٧٩) .

- يؤمنون بما يوافق أهواءهم ويتركون ما لا يعجبهم: **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ** (البقرة: ٨٥).
- تعمية الحقائق بقصد الغش وإلباس الحق بالباطل: **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** (البقرة: ٤٢).

التكبر وإدعاء التفرد

قضت حكمة الله أن التفرد لا يليق إلا بذاته العلية، وقد حاول العديد من بني البشر التفرد؛ فطغوا وأصيبوا بأمراض نفسية أساؤوا لأنفسهم ولغيرهم. ويعتبر فرعون رأس الأمثلة، فهو مثالٌ على ذلك؛ حيث ادعى الألُوهية؛ ثم أهلكه الله تعالى بعد أن أرسل له موسى عليه السلام؛ ليهديه بالحجة والبيان، فتكبَّر وعلا في الأرض، قال تعالى: **اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَى أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى * فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَى * فَكَذَّبَ وَعَصَى * ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَى * فَحَشَرَ فَنَادَى * فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** (النازعات: ١٧-٢٤).

وقد قضت حكمة الله تعالى أن يكون الخلود له؛ فليس قبله شيء وليس بعده شيء، وهو الأول والآخر، وقد حكم على جميع خلقه بالموت، وهو الحي الذي لا يموت، وهذا يجعل العاقل يُسلّم أمره له جلّ وعلا لأنه ربط نفسه بمن لا يموت ويتخلى عنه، وهذه عين الحوكمة التي تبغي الاستمرارية.

آفات نقص العلم

لما أمر الله تعالى خلقه من الملائكة والجن وغيرهما ممن خلقهم أن يسجدوا لآدم؛ أبى إبليسُ أمر ربه: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (البقرة: ٣٤)، ورَفضُه رفض المتكبر ظنّا بما عنده من العلم؛ وأن الأفضلية سببها الجِبِلّة التي خُلق منها الجن والإنس، قال تعالى: **قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ** (الأعراف: ١٢)، وهذا شأن ناقص العلم والمعرفة في وقوعه في الأخطاء، وقد كان خطأ إبليس عظيمًا لأن نتيجته أن أودى بنفسه نار جهنم خالدًا فيها.

وتكرر نقص العلم في قتل الأخ لأخيه حسدًا، والحسد هو القِشر؛ أي أن القاتل أخذ بظاهر الشيء ولم يعلم حقيقته، فكان خطؤه عظيمًا، وسرعان ما وجد نفسه في حيرة؛ لجهله بما سيفعله بجثة أخيه المقتول، فهذه أول حالة موت في الكون، فأرسل الله له غرابًا يُعلمه كيف يواري جثة أخيه في التراب؛ وقد عَلَّم الله هابيل كيفية الدفن بواسطة مشاهدة فِعل الغراب. قال الله تعالى: **فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ** (المائدة: ٣١)، والكيفية (كَيْفَ) هي طريقة العمل وهي تحتاج علمًا سابقًا عن العمل المنجز، وكيفيَّة الشيء: حالُه وصِفتُه[١]، أما الإراءة (**لِيُرِيَهُ**) فهو تعلمٌ بالمشاهدة، فالله أوحى للغراب لينفذ العمل

[١] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م.

أمام هابيل، فتعلم هابيل بمشاهدة الفعل، **وبذلك فإن أصل كسب العلم عند المخلوقات جميعها وخاصة الإنسان؛ هو علم الله تعالى.**

المبحث الخامس - مقومات العملية التعليمية

لابد من استمرار العملية التعليمية والمحافظة على مقومات بقائها لإبعاد الناس عن الجهل والتجهيل، وإرشادهم إلى العلم الصحيح وإكسابهم الحكمة منه ليتقنوا العمل ويُخلصوا به؛ فتقوم بذلك عمارة الأرض، ويتحقق نفع الناس وتعم السعادة بينهم.

ولكثرة مصطلحات دعاة التجهيل والتضليل لابد من بيان مصطلحات أهل العلم وتعابيرهم. أما مقومات العملية التعليمية فتتمثل بالحاجة إلى الرسول المعلم ومذاكرته للمتعلمين، وتوضيح مراتب العلم التي يمكن للإنسان أن يرتقيها وأن يتسلح بها، كلٌ حسب طاقته فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها، قال تعالى: **لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا** (البقرة: ٢٣٣).

مصطلحات وتعابير ذات علاقة[1]

إن لصناعة العلم والفكر وما يستلزمه من كتابة وتأليف؛ مصطلحات ذات دلالة محددة، يفترض بالعاملين في مجال البحث العلمي التوقف عندها لوضع المصطلحات في موضعها المقصود.

وقد ذكر الرازي في تفسيره؛ مصطلحات ذات علاقة بالعلم؛ كالمعرفة والفهم والفقه والعقل والدراية والحكمة؛ وأوضح المراد من كل منها:

[1] التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، الباب ٢١، الجزء ١، الصفحة ٤٨٦

- المعرفة

إن من أدرك شيئًا وانحفظ أثره في نفسه؛ ثم أدرك ذلك الشيء ثانيًا، وعرف أن هذا المدرك الذي أدركه ثانيًا هو الذي أدركه أولاً فهذه هي المعرفة؛ فيُقال: عرفت هذا الرجل، وهو فلان الذي كنتُ رأيته وقت كذا.

- الفهم

هو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والإفهام هو اتصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع.

- الفقه

هو العلم بغرض المخاطب من خطابه، يُقال فقهت كلامك أي وقفت على غرضك من هذا الخطاب؛ ثم إن كفار قريش لما كانوا أرباب الشبهات والشهوات؛ قال تعالى فيهم: **لاَّيَكَادُونَيَفْقَهُونَقَوْلًا** (الكهف: ٩٣) أي لا يقفون على المقصود الأصلي والغرض الحقيقي.

- العقل

هو العلم بصفات الأشياء من حُسنها وقُبحها وكمالها ونقصانها؛ فإنك متى علمت ما فيها من المضار والمنافع صار علمك بما في الشيء من النفع داعيًا لك إلى الفعل، وعلمك بما فيه من الضرر داعيًا لك إلى الترك؛ فصار ذلك العلم مانعًا من الفعل مرة، ومن الترك أخرى؛ فيجري ذلك العلم مجرى عِقال الناقة المُتحكم بها.

- الدراية

هي المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل وهو تقديم المقدمات[1] واستعمال الروية وأصله من دريت الصيد، والدرية لما يُتعلم عليه الطعن ...، وهذا لا يصح إطلاقه على الله تعالى لامتناع الفكر والحيل عليه تعالى.

- الحكمة

هي اسم لكل عِلم حَسَن، وعَمل صالحٌ، وهو بالعلم العملي أخصُ منه بالعلم النظري، وفي العمل أكثر استعمالاً منه في العلم، ومنها يُقال أحكم العمل إحكامًا إذا أتقنه... والحكمة من الله تعالى خلقُ ما فيه منفعة العباد ومصلحتهم في الحال وفي المآل...، وقيل: هي معرفة الأشياء بحقائقها؛ إشارة إلى أن إدراك الجزئيات لا كمال فيه لأنها إدراكات متغيرة.

أما العسكري[2] فقد ميّز في معجمه (الفروق اللغوية) بين المصطلحات المتشابهة بما يُوضح تداخلها ليَحسُن فهمها:

- الفرق بين العلم والإدراك

الإدراك موقُوف على أشياء مخصُوصة، وليس العلم كذلك، والإدراك التشيء على أخص أوصافه وعلى الجُملة والعلم يقع بالمعدوم ولا يدرك إلاّ الموجُود والإدراك طريق من طرق العلم ولهذا لم يجز أن يقوى العلم بغير المدرك قوته بالمدرك ألا ترى أن الإنسان لا ينسى ما يراهُ في الحال كما ينسى ما رآهُ قبل.

---

[1] الضروريات أو البديهيات
[2] الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، توفي: نحو ٣٩٥ هـ - ١٠٠٥ م.

- الفرق بين الإدراك والإحساس

يجوز أن يُدرك الإنسان الشّيء وإن لم يُحس به؛ كالشيء يُدركهُ ببصره ويغفل عنهُ فلا يعرفهُ؛ فيُقال إنّه لم يُحس به، ... قال تعالى: **فَلَمَّاأَحَسُّوابَأْسَنَا** (الأنبياء: ١٢)، وقال أيضًا: **فَتَحَسَّسُوامِنيُوسُفَ**(يوسف: ٨٧)؛ أي بإحساسكم.

- الفرق بين الإدراك والوجدان

الوجدان في أصل اللُّغة لِما ضاع ولا يُعرف موضعه، يُقال نشدت الضّالة إذا طلبتها؛ فإذا وجدتها قلت وجدتها وجدانًا، أُستدلّ على أن وجدت هٰهُنا إنّما هُو للضالة والإدراك؛ فتقول وجدت الضّالة ولا تقول أدركت الضّالة ... وأصل الإدراك في اللُّغة بُلُوغ الشّيء وتمامه ومنه إدراك الثّمرة وإدراك الغُلام وإدراكك من تطلب؛ كقوله تعالى: **قالَأَصْحَابُمُوسَىإِنَّالَمُدْرَكُونَ** (الشعراء: ٦١)؛ فالوجود هُو العلم بالموجود.

- الفرق بين الذّوق وإدراك الطّعم

الفرق بين الذّوق وإدراك الطّعم؛ أن الذّوق مُلابسة يَحسُ بها الطّعم، إدراك الطّعم يتبينّ به؛ يُقال ذقته فلم أجد لهُ طعمًا.

الحاجة للرسول المعلم

تحتاج العملية التعليمية مُعلمًا، وبما أن الكلام عن العلم الذي من عند الله فيكون المعلم معلمًا رسولاً من بني البشر أنفسهم؛ ليُعلِّم الناس كتاب الله؛ بإقرائهم آيات الله وتلاوتها عليهم وبتزكيتهم وتطهير نفوسهم، ويعلمهم الحكمة من خلال معرفةُ

أفضل الأشياء بأفضل العلوم، قال تعالى: رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (البقرة: ١٢٩).

مهمة الرسول المعلم التبشير والإنذار

جاءت الآية التالية لترسي حقيقة حمل الرسول لخبر السماء وبأنه ليس إلا بشيراً ونذيراً لأهل الأرض الذي هو منهم: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (البقرة: ١٣٠).

مذاكرة الرسول العلم مع المتعلمين

تكون المذاكرة مع الغير بالحوار لإغناء معارفهم، وللاستدلال على ما خفي منها؛ فلا يحوز العلم كاملاً إلا خالق عليم، ولسَعة علمه وشدته فهو عليم بكل شيء سواء أكان خافيًا أم باديًا، وفي هذا تنبيه كي لا يغفل الخلق بكتمانهم أشياء ظنًا منهم أن لا أحد مُطلع على ما كتموه. يفيد ذلك في المعرفة بأن الخالق رقيب عليم لا يعزب عنه شيء مطلقًا، قال تعالى: فَلَمَّا أَنبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣).

وتأتي مرحلة العمل بعد العلم واكتساب المعرفة وهذا شرط، فأول أمر ابتدأه رب العزة لخلقه كان أن أمرهم بالسجود لآدم وهذا عمل، فالتزم الملائكة أمر الله وعملوا بما علموه، أما إبليس فرفض إنجاز العمل رغم ما علمه من الله تعالى.

وأوضح الله تعالى العلة في رفض العمل بالأمر بأنها (الاستكبار)، والاستكبار من الشيء الكبير الذي يدعو صاحبه ليكون أعلى من غيره، وبما أن الله تعالى من صفاته الكبير ومن أسمائه العظيم، وأنه صاحب الأمر وكل شيء دونه؛ فحريّ بإبليس؛ أن يطيع وينفذ العمل لأنه عَلِم وعَرِف قَدر خالقه، والاستكبار والترفع تعاليًا جعل إبليس بعيداً عن الحقيقة؛ فكان غِطاءً له عنها؛ فصار كافرًا لتغطيته العلم الذي علمه، فصار الكفر صفة المتعامي عن الحقيقة الواضحة وأداة المواربة عنها: **وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ** (البقرة: ٣٤).

إذًا؛ الإيمان علم، والعمل يكون صالحًا، قال تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (البقرة: ٦٢). وقال أيضًا: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (البقرة: ٨٢).

موسى والخضر والعملية التعليمية

حكى لنا القرآن قصة الحوت الذي سخّره الله ليُقلّ موسى عليه السلام؛ ليتعرف على الخَضر ليتعلم منه؛ بعدما ظنَّ موسى عليه السلام أنه أعلمُ أهل الأرض، فتلقى دروسًا في أصول التعلم، ومن ذلك:

- طلب الإذن من المعلم، **قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (الكهف: ٦٦).

- طالِبُ العلم متواضع لمعلمه، ولو كان نبيًا من أولي العزم؛ فشرط الملازمة الطاعة والصبر؛ لقول موسى للخضر عليهما السلام: **قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا** (الكهف: ٦٩).
- اشترط المعلم ألا يقاطعه المتعلم؛ حتى ينتهي من عمله: **قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا** (الكهف: ٧٠).
- الخطأ المقبول؛ إثنان فإن زاد عن ذلك تنتهي العملية التعليمية: **قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا** (الكهف: ٧٨)، أي أن من حق المتعلم أن يعلم تفسير الأحداث من معلمه.
- صفة المعلم أنه أكثر علمًا: **فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا** (الكهف: ٦٥)؛ فالعليم هو الله تعالى، وهو من علّم الخضر عليه السلام، الذي علّم بدوره موسى عليه السلام.
- التعليم من خلال معلم؛ كتجربة موسى مع الخضر عليهما السلام؛ وعلمناه من لدنا علما؛ أي بدون رسل، وعادة هذا علم غير ظاهر أي ليس علم أحكام بالتكاليف. ذكر الشعراوي رحمه الله: أن خرق السفينة ظاهريًا منهي عنه لما فيه من الأذى وهذا علم الرسل والأنبياء، أما فعل الخضر هو مما علَّمه الله إياه (علم لدنيّ)، له أسباب باطنية غير ظاهرة، وفيه الخير؛ لذلك كان قول الخضر لموسى: **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** (الكهف: ٦٧).

مراتب العلم

العلم مكانه الظنيات وأفضل درجاتها غالب الظن، لذلك فالنظريات والأبحاث والدراسات العلمية تكون ضمن غالب الظن، فإذا استقرت ولم تتغير بتغير الظروف المحيطة فترة طويلة من الزمن أمكن تصنيفها كقانون علمي، مثال ذلك قانون العرض والطلب الذي لم تخرمه عبر الزمن أية إشكاليات تدحضه.

فإذا بلغ العلم درجة اليقين كان صحيحًا صالحًا للاحتجاج به مع الاطمئنان لنتائجه، جاء في لسان العرب أن اليقين هو: العِلْمُ وإزاحة الشكِّ وتحقيقُ الأَمر، وهو نَقيض الشكِّ؛ فالعلم نقيضُ الجهل، وعليه يُقال: عَلِمْتُه يَقيناً.

وبناء عليه؛ فالعِلم أدنى الدرجات، ثم يعلوه (علم اليقين)، ثم (عَين اليقين)، أمّا أعلاها فـ (حقّ اليقين). وقد ذكر القرآن الكريم هذه الدرجات:

- علم اليقين، وهو أقلها؛ ويكون العلم المتلقى سماعيًا، ويتحقق علم اليقين بالخبر من خلال حاسَّة السمع فيستقر في القلب ويُصدِّقه؛ كقوله تعالى: **كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**.
- عين اليقين، وهو العلم الذي يكون بالمشاهدة، ويتحقق عين اليقين بِحاسَّة البصر؛ كقوله تعالى: **ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ**.
- حق اليقين؛ وهو العلم المُعاش والمُكابد والمتحقق منه، قال تعالى: **فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ * إِنَّ هَـذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ** (الواقعة: ٩٣-٩٥).

لذلك فإن مصدر المعرفة؛ آيات الله في قرآنه الكريم، ثم مخلوقاته في الكون، فتكون المعلومات بالكم، والعلم بالكيف، لتستثمر المعارف بتوظيف المعلومات بمنهجية وصولاً للحقائق العلمية.

إذاً يستند العلم إلى المعرفة، لأن فيها إدراك الشيء على ما هو عليه بعينه لا بصورة زائدة في الذهن، والصورة الذهنية قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها، فيكون العلم نسبيًا، وإن طابقها في الذهن فقد يكون التعبير اللغوي غير مطابق للصورة الذهنية أيضًا. وهذه الإشكالات تكون حاضرة عند المفكرين والمبدعين والقيادات وهذا ما قصدناه بغالب الظن، فيبقى كذلك حتى يُرسي الطمأنينة والثبات فيكون حقيقة علمية.

حكمة رد العلم إلى الله

لطالما خطر في فكري تساؤل فكرت به مراراً، وسألته بعض الأصدقاء والزملاء من العاملين في مجال البحث العلمي، واستمر ذلك في بالي سنين طويلة، ولربما جاء الوقت لبيانه وتوضيحه. والسؤال هو: **ما حكمة زوال العلم بزوال صاحبه بعد قضائه عمراً طويلاً في تحصيله ومكابدته؟ ولماذا لا ينتقل العلم بين الناس كالإرث؟**

وقد بحثت عمن خاض في هذا الأمر، فوجدت بعضه عند الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال)، ووجدته بعضه عند ابن عربي في كتابه (الفتوحات المكية). فالغزالي الذي شاع صيته في بغداد (عاصمة الدنيا آنئذ)، اعتزل الناس سنين طاف خلالها البلاد لدراسة أحوال الفرق المختلفة في اعتقادها التي نسبت كلٌ منها

الحقيقة لنفسها دون غيرها؛ ثم خرج بكتاب لا يتعدى الستين صفحة من القطع الصغير لخص فيه ما آلت إليه رحلته، بقوله: (إن العلم نور يقذفه الله في القلب).

قال الإمام مالك[1]: علم الباطن لا يعرفه إلا من عرف علم الظاهر فمتى عَلم الظاهر وعمل به فتح الله عليه علم الباطن، ولا يكون ذلك إلا مع فتح قلبه وتنويره، وقال: ليس العلم بكثر الرواية إنما العلم نور يقذفه الله في القلب يشير إلى علم الباطن.

وفي حديث مرسل؛ أشار عليه الصلاة والسلام حين سُئل عنه فقال: نور يقذفه الله في قلب المؤمن فينشرح له أو ينفسخ، فقالوا: هل لذلك أمارة يُعرف بها، فقال: نعم، الإجابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور والاستعداد للموت قبل نزوله[2].

أما الشيخ محيي الدين بن عربي فقد ذكر مراتب العلوم، ووضع شروطًا وصفاتًا للحصول على العلم من الله والأسرار الإلهية والمعارف الربانية، وهي أن يكون طالب العلم: متأهبًا وطالبًا للمزيد، ومتعرضًا لنفحات الجود بأسرار الجود، وسبيل ذلك:

- لزوم الخلوة والذِكر.
- تفريغ المحل من الفِكر.
- الاعتراف بالفقر عند باب الغني.

---

[1] فيض القدير شرح الجامع الصغير من احاديث البشير النذير، محمد عبد الرؤوف المناوي ضبطه وصححته أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م، ج ٥، ص ٤٥١.

[2] الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، المتوفى ١٠٣١ هـ، حققه أحمد مجتبى، دار العاصمة بالرياض، ج ٢، ص ٦١٩.
أخرجه الفريابي وعبد بن حميد وابن جرير من حديث أبي جعفر مرسلا، وأخرجه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان موصولا من حديث ابن مسعود.

والعلم عنده يؤخذ من مصدرين:

١. ميت عن ميت؛ أي بشر عن بشر.

٢. ميت عن حي لا يموت، أي بشر عن الذي لا يموت وهو الله تعالى.

وبذلك فترتيب العلوم عنده لها ثلاث مراتب[١]: علم العقل، وعلم الأحوال، وعلم الأسرار.

وأعتقد أن جواب تساؤلي كما خبرته من مسيرة تجاوزت العشرين عامًا؛ أن درب العلم هو درب الأنبياء والصالحين، فالأنبياء صلى الله عليهم يؤتيهم الله تعالى العلم والحكمة، أما غيرهم من البشر؛ فإن دربه عندهم شاقٌ ومتعبٌ ولا يصله إلا العازمون على كسبه، الجادون في طلبه، المخلصون ظاهرًا وباطنًا في تحقيقه لوجه الله تعالى. ولابد لطالب العلم من أن يسأل الله تعالى علمًا نافعًا ليستنير بعلم الله تعالى؛ فقد روى جابر بن عبد الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله: **(سَلوا اللهَ علمًا نافعًا، وتعوَّذوا باللهِ من علمٍ لا ينفَعُ)**[٢]. أما من طلبه من غير الله فهو رد عليه؛ لرواية عبد الله بن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من اقتبسَ عِلمًا منَ النُّجومِ اقتبسَ شعبةً منَ السِّحرِ زادَ ما زادَ)**[٣]. وقد ذمَّ الله تعالى من تتبع العلم الضارّ؛ فقال المولى عزّ وجلّ: **وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا**

[١] يمكن الاستزادة والتفصيل بالعودة إلى كتاب الفتوحات المكية.

[٢] سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر ببيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء باب ما تعوذ منه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ج ٢، ص ١٢٦٣، وإسناده صحيح في الزوائد، رجاله ثقات.

[٣] سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ابن ماجه، كتاب الأدب، باب تعلم النجوم ج ٢ ص ١٢٢٨، وكتاب الطب، باب في النجوم، ج ٢، ص ٤٠٨،

لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ۚ(البقرة: ١٠٢)، فالعلم الضارّ يَحرفُ الإنسان عن عبادة الله.

وقد حرص أهل العلم على قيد العلم وتسطيره حتى قال البعض إن العلم في السطور لا في الصدور؛ لكن العلم حتى لو سُطّر وقُيّد في الكتب فإن من سيبدأ رحلته به سيكون له حظًا وافرًا من التعب والوصب.

ومن طُرق الحفظ؛ فكرة اختراع قواعد البيانات Data Base فمراكز البحث العلمي التي تضم ثلة من العلماء؛ تَفقد بموت أحدهم إرثًا وافرًا من العلم، فجاءت فكرة تفريغ البيانات والمعلومات في قاعدة بيانات لتخزين ما يحفظه العالم لتعويض النقص إن حصل.

ثم كان التفكير باختراع الروبوت أو الآلة الناطقة لتضم خبرات أولئك العلماء العاملين، لمساعدتهم في إنجاز مهام توكل لتلك الآلات، فنشأ التعلم العميق وتعليم الآلة والذكاء الصنعي وعلم البيانات.

وما زال الإنسان مجتهداً في إيجاد الوسائل الأفضل لتكون معينًا ومساعداً له.

الفصل الثاني

المنهجية العلمية عند الغزالي في المنقذ من الضلال

يختل ميزان المعارف الإنسانية كلما فسد العلم بين الناس وكلما أضاعوا بوصلة الإيمان، عندئذ يبرز الدور الإيجابي للعالِم المصلح لذلك الفساد؛ ببث غاية العلوم وأسرارها، وبيان فساد المذاهب؛ لإعادة الناس للمسار الصحيح بعيداً عن امتزاج أهوائهم وتقلب قلوبهم.

ويوضح الشكل التالي معالجة الغزالي لقضية إدراك الحقائق في المنقذ من الضلال:

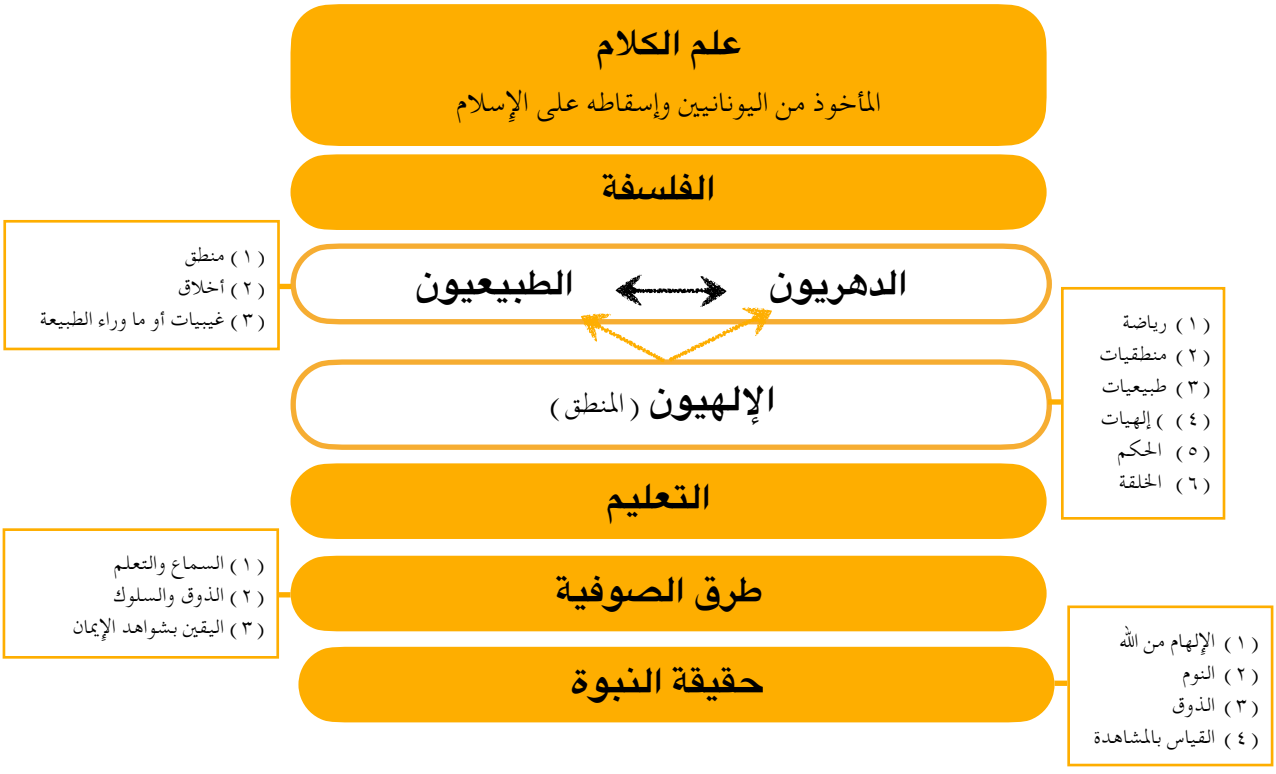

قواعد يلتزم بها الباحث العلمي

تختلف معاناة العالِم عن معاناة العوام لأنه:

- يقاسي في استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرق مع تباين المسالك والطرق.
- عليه أن يترفع عن حضيض التقليد إلى الاستبصار؛ فقد كره الغزالي علم الكلام، وعاب على أهل التعليم تقصيرهم عن إدراك الحق بسبب تقليدهم الإمام، وكره تراخي طرق التفلسف، وضَعْفَ طريقة التصوف في بيان أقاويل الخلق، من لُباب الحق.

يستخلص مما ذكره الغزالي قواعد يلتزم بها العالم وطالب العلم على السواء، بما يعينهم على سبر ما ستؤول عليه أمور الناس فيستبصرونها قبل وقوع الخطر:

قاعدة: عند فساد العلم يختلف الناس

إن ما حصل من تزوير وتحريف بعض الناس لأديانهم في الأمم السابقة واستحكام العادات والتقاليد بينهم أدى لاختلافهم في الأديان والملل. وقد كانت الرسل والأنبياء تعيد تصحيح مسار البشرية حيث يُرسلهم الله تعالى لبيان العلم الصحيح للإيمان به؛ ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين فلا رسول ولا نبي بعده، فإن العلماء بوصفهم ورثة الأنبياء هم من يترتب عليهم إعادة الناس إلى الحق، وهذا ما كان من حجة الإسلام في وقوفه إعادة الناس إلى المسار الصحيح.

وإن اختلاف الأمة في المذاهب على كثرة الفِرق، وتباين الطُرق، بحر عميق غرق فيه الأكثرون، وما نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي؛ **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا**

لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (الروم: ٣٢)، وهذا ما وعدنا به سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، الذي قال: (**ستفترق أمتي ثلاثًا وسبعين فرقة، الناجية منها واحدة**)[١].

قاعدة: صفات العالِم المصلح

إن صفات الإمام الغزالي التي وصف بها نفسه كمجدد ومصلح؛ صفات لازمة لمن سيتصدى لاختلاف الأمة وتفرقها أحزابًا وشيعًا وفرقًا، ومن ذلك:

١. إقدامه على اقتحام صخب بحر عميق.

٢. خوض غمرة الخلاف خوض الجَسور، لا خوض الجبان الحذور.

٣. التوغل في كل مظلمة.

٤. الهجوم على كل مشكلة.

٥. اقتحام كل ورطة وأمر غامض.

٦. تفحص عقيدة كل فرقة.

٧. استكشاف أسرار مذهب كل طائفة.

لذلك لابد أن يكون دأبه وعادته التعطش إلى دَرَك حقائق الأمور، منذ صغره كغريزة وفطرة وهذا تعبير عن الطبيعة السليمة التي لم تشبها شائبة، بل وضعها الله فيه خِلقة، وليست اختياراً ولا حيلة. وهذا ما يؤهله لأن يكون غير مقلّد، وبعيداً عن العقائد الموروثة لأن التقليد قيد على حرية التفكير الصحيح.

---

[١] سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، ج ٥، ص ٢٦. ولفظ الترمذي: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملّة وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملّة كلهم في النار إلا ملّة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي.

فقد رأى الغزالي كيف يتنصر صبيان النصارى لنشوئهم على التنصر، وصبيان اليهود على التهود، وصبيان المسلمين على الإسلام. وهو قد سمع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه: **(ما مِن مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ علَى الفِطْرَةِ، فأبَواهُ يُهَوِّدانِهِ أوْ يُنَصِّرانِهِ أوْ يُمَجِّسانِهِ)**[1]؛ فكان ذلك سببًا وحافزًا لطلب:

- حقيقة الفطرة الأصلية.
- حقيقة العقائد العارضة المتناقضة التي يُسببها تقليد الوالدين أو المعلم، فكان لزامًا التمييز بين هذه التقليدات، وبيان دور التلقين في نشوئها، لتمييز الحق منها عن الباطل.

قاعدة: غاية العالِم الحق؛ إصلاح فساد العلم لإصلاح حال الناس

أوضح الغزالي أن غايته هي: التمييز بين مُحقٍ ومُبطلٍ، ومُتسننٍ ومُبتدعٍ مخترع في الدين، لذلك فلم يُغادر باطنيًا إلا وأحب الاطلاع على باطنيته، ولا ظاهريًا إلا وأراد أن يعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيًا إلا وقصد الوقوف على كُنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا واجتهد في الإطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وحرص على العثور على سِرِّ صفوته، ولا متعبدًا إلا وترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا مُظهرًا إيمانه ومبطنًا كفره مُعطلاً لحدود الله إلا تحسس وراءه للتنبه لأسباب جُرأته في تعطيله وزندقته.

[1] صحيح البخاري

قاعدة: العلم يسبر حقائق الأمور

يجب على من يسعى للبحث عن حقائق الأمور أن يبدأ من ذاته؛ فيصحح غايته، ثم عليه البحث عن الحقيقة التي تجلب الطمأنينة؛ فطلب العلم بحقائق الأمور، يستلزم طلب حقيقة العلم.

قاعدة: العلم اليقيني أمان من الخطأ

لقد ظهر للغزالي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يفارقه إمكان الغلط والوهم فلا يقع في ذهنه خاطر أو تخيل، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك؛ فليس للعواطف دور في ذلك، بل إن الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنًا لليقين، مقارنةً لا يُبطلها أي تحدٍ لإظهار بطلانه؛ فإن داخل ما علمته شك، أو علمت منه شيئًا من غير ذلك الوجه، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني.

وهذا تحقيق للقاعدة الفقهية بأن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

وهذا المنهج العلمي هو ذاته الذي وصل إليه ديكارت وفرانسيس بيكون بعد خمسة قرون، وهما قد اعتبر على أنهما فاتحة العصر الحديث للفكر الأوربي لوضعهما المنهج الجديد الذي لا يكاد يختلف عما وضعه الغزالي في كتبه، والمنهج التجريبي نشأ في ظل الإسلام في جامعات الأندلس والشرق[1].

[1] تعليق محقق الكتاب محمود بيجو

مدخل السفسطة[1] وجحد[2] العلوم

أدى توسع رقعة الخلافة الإسلامية شرقًا وغربًا وشمالاً إلى احتكاك مفاهيم أهل البلاد المفتوحة وامتزاج علومهم بالمفاهيم والعلوم الإسلامية، فتصادمت عاداتهم وتقاليدهم بالثوابت الإسلامية، وقد تأثر بعض العلماء المسلمين أو ممن دخل حديثًا بالإسلام بذلك؛ فحاولوا إعادة تقديم العلوم الجديدة بلباسٍ متجددٍ، فتأثر البعض بذلك، وأحدث الاحتكاك صدامًا بين المفاهيم بدا كصراع بين حضارات. لقد انتهت الفتوحات، لكن معركة المفاهيم وطغيان بعضها على بعض قد بدأت.

فالثقافات الرومانية واليونانية القادمة من الشمال والغرب مثقلة بالفلسفة الكلامية التي حرفت ديناتها وأعملت الفكر دونها فعظّمت العقل وعطلت الروح، والثقافات الفارسية والهندية والصينية القادمة من الشرق مثقلة بحركات باطنية وعبادات غارقة في التأمل فعظّمت الروح وعطلت العقل.

أفرز كل ذلك تحديات أمام عقيدة المسلمين وثقافاتهم؛ فانتشرت الفِرق والمذاهب وأوغلت بالتعصب فيما بينها حتى صار الخلاف اختلافًا؛ فاحتُسبت الأنفاس واحتَقنت النفوس بعضها على بعض.

---

[1] المعجم الوسيط: هي قياس مركب من الوهميات، والغرض منه إفحام الخصم وإسكاته وهي من اليونانية.
أو هي قياس مركب من الوهميات، والغرض منه تغليط الخصم، نحو: الجوهر موجود في الذهن، وكل موجود فيه قائم به عرض لينتج أن الجوهر عرض.
أو هي ابتغاء الإقناع عن طريق البراعة والخطابة والمجادلة، وتطويع المنطق والنسبية، لا عن طريق المحاولة المتجردة لمعرفة الحقيقة. وهذا المعنى للتعبير ارتبط بما آل إليه السفسطائيون في اليونان زمن أفلاطون وأرسطو.

[2] إنكار

ويدلّ اختيار الغزالي لعنوانه على مراده، فالسفسطة في المعجم الوسيط قياس مركب من الوهميات، بغرض إفحام الخصم وإسكاته، حيث يكون الإقناع عن طريق البراعة والخطابة والمجادلة، وتطويع المنطق والنسبية، لا عن طريق المحاولة المتجردة لمعرفة الحقيقة، وهذا مآل السفسطائيين اليونانيين زمن أفلاطون وأرسطو.

لذلك فتش الغزالي في علومه ليجد أن ما عنده من علم يميل لأهل الكلام باستثناء الحسيات والضروريات أي البديهيات والمسلَّمات؛ فقرر إحكام معارفه من الحسيات والضروريات بوصفها واضحة جليّة؛ ليبني عليها معارف تُولِّد له الثقة والأمان، ليكسب سلامة الضروريات؛ فابتعد الغزالي بذلك عن التقليد كمصدر؛ حيث كان كغيره يطمئن لها ولنتائج النظريات، ليبدأ بناء منهجه العلمي المستقل والحيادي بموضوعية.

الشك المنهجي: العقل يُشكك بالحواس

بعد ذلك، أقبل الغزالي بجدٍّ بليغٍّ يتأمل المحسوسات والضروريات، وينظر هل يمكنه أن يشكك نفسه فيها؟

انتهى طول التشكيك بعدم تسليم الأمان في المحسوسات أيضًا؛ طارحًا سؤاله: من أين الثقة بالحواس؟ وأقواها حاسة البصر، وهي تنظر إلى الظل فتراه واقفًا غير متحرك، وتحكم بنفي الحركة، ثم بالتجربة والمشاهدة؛ فبعد ساعة تعرف أنه متحرك، وأنه لم يتحرك دفعة واحدة بغتة، بل بالتدريج ذرّة ذرّة، حتى لم يكن له حالة وقوف. وتنظر إلى الكوكب، فتراه صغيرًا في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدلُّ على أنه أكبر من الأرض في المقدار. هذا، وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها

حاكم الحسِّ؛ بأحكامه ويُكذبه حاكم العقل ويُخوّنه تكذيباً لا سبيل إلى مدافعته؛ فما أخطأته حاسة البصر صححه حاكم العقل، أي الاستدلال العقلي، فمن الخطأ أن أستدل نتيجة ما أراه كرؤية الكوكب صغيراً والواجب المنهجي يقول: هل حجم الكوكب في رؤيتي كحجم الدينار؛ أم ماذا يكون في الحقيقة؟ فطريق العلم به طريق آخر.

وقد عبّر الغزالي عن ذلك بالأدلة الهندسية الدالة، واصفًا إياها بالـ (**مقاييس**) .

أما النتيجة: قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضًا؛ فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الأوليات

كقولنا: العشرة أكثر من الثلاثة والنفي والإثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد، والشيء الواحد لا يكون قديمًا، موجوداً معدومًا، واجبًا محالاً.

الشك المنهجي: الحواس تُشكك بالعقل

قالت الحواس: بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات وقد كُنتَ واثقًا بي، فجاء حاكم العقل فكذبني، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي، فلعل وراء إدراك العقل حاكماً آخر، إذا تجلى كذب العقل في حكمه، كما تجلى حاكم العقل؛ فكذَّب الحس في حكمه، وعدم تجلي ذلك الإدراك لا يدلُّ على استحالة!!

الرؤى والمنامات

توقفت النفس في جواب ذلك قليلاً، وأيّدت إشكالها بالمنام، وقالت الحواس:

أما تراك تعتقد في النوم أموراً، وتتخيل أحوالاً، وتعتقد لها ثباتًا، واستقراراً، ولا تُشْكل في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم: أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل.

فبم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده في يقظتك، بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التي أنت فيها؟

لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك، كنسبة يقظتك إلى منامك، وتكون يقظتك نومًا بالإضافة إليها! فإذا وردت تلك الحالة، تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها.

ولعل تلك الحالة، ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم، إذ يزعمون أنهم يشاهدون في أحوالهم التي لهم إذا غاصوا في أنفسهم، وغابوا عن حواسهم أحوالاً لا توافق هذه المعقولات، ولعل تلك الحالة هي الموت. ولعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلى الآخرة، فإذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن، ويقال له عند ذلك: **فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ** (ق: ٢٢).

أمام هذه الخواطر، بحث الغزالي عن دليل يُقيم عليه ما انقدح في نفسه، فقرر أن الدليل لن يكون إلا من تركيب العلوم الأولية كالمسلَّمات؛ بوصفها حقائق لا تحتاج إلى برهان. وإلا تعذر تركيب الدليل.

يقول الغزالي: إنه بقي في هذه المعضلة شهرين وهو يحاول على مذهب السفسطة حتى شافاه الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال.

وعادت الضروريات العقلية مقبولة موثوقًا بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر وذلك النور هو مفتاح

أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة.

إذًا؛ شكك الغزالي بكل المعلومات التي سبق أن حصّلها عن طريق الحواس أو عن طريق العقل؛ ثم بدأ بأوليات يقينية تستمد يقينها من إدراكه المباشر، وهذا هو طريق الشك المنهجي نفسه الذي سلكه من بعده فلاسفة مثل ديكارت[1].

إن الأوليات ليست مطلوبة، لأنها حاضرة، والحاضر إذا طُلب نفر واختفى، ومن طلب ما لا يُطلب فلا يُتهم بالتقصير في طلب ما يُطلب.

أصناف الفِرق

حصر الغزالي أصناف الطالبين في أربع فرق يدعي كل منهم الحق لنفسه، وبوصفهم سالكي سُبل طلب الحق؛ فإن شذَّ الحق عنهم، فلا يبقى في دَرَك الحق مطمع.

والغزالي عكف عن التقليد ولن يعود إليه، إذ من شرط المقلّد أن لا يعلم أنه مُقلد، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده، وهو شيء لا يمكن إصلاحه، وتفرّقٌ لا يمكن جمعه بالتلفيق والتأليف، إلا أن يُذاب بالنار لتذهب خواصه وتختفي؛ ثم يستأنف له صنعة أخرى مستجدة.

والفِرَق هي:

١ – المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

[1] أثبت المؤرخ التونسي عثمان الكعاك في ملتقى الفكر الإسلامي في الجزائر عام ١٩٧٦ أنه عثر على ترجمة لاتينية من القرن الرابع عشر لكتاب المنقذ من الضلال للغزالي في مكتبة ديكارت بدار الكتب الوطنية الفرنسية بباريس، واستحضر صورة عن الترجمة وكتب ديكارت بخط يده تعليقا على الأجزاء الخاصة بالشك يقول: فيه يضاف هذا إلى منهاجنا. ص ٣٣٣ مجلد ١، محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي - عناية ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م.

٢ – الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣ – الفلاسفة: وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤ – الصوفية: وهم يدّعون أنهم خواص الحضرة، وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فابتدر لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفِرق، مُبتدئًا بعلم الكلام، ومُثنيًا بطريق الفلسفة، ومُثلثًا بتعلم الباطنية، ومُربعًا بطريق الصوفية.

علم الكلام؛ مقصوده وحاصله

نشأ علم الكلام[١] بتأثير الفلسفة اليونانية التي لم تكن إلا مجموع ظنون وتخمينات لا تقوم على أساس علمي، وكان المعتزلة أسرع افتنانًا بمنطق اليونان، وحاولوا إخضاع الدين لمنطقه؛ فحاولوا القرآن على آرائهم.

لذلك شرع الغزالي بتحصيل علم الكلام، حتى عَقَله وطالع كتب محققيه، وصنّف فيه ما أراد أن يصنّف؛ ثم وصفه وصفًا موضوعيًا بأنه: علم وافٍ بمقصوده، لكنه غير وافٍ بمقصود الغزالي؛ لأن الغزالي يبتغي حفظ عقيدة أهل السنة، وحراستها عن تشويش أهل البدعة، فقد ألقى الله تعالى، إلى عباده على لسان رسوله عقيدة؛ هي الحق، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم، كما نطق بمعرفته

[١] التعريفات الفقهية: محمد عميم الإحسان ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ م: هو علمٌ باحثٌ عن أمور يُعلم منها المُعاد.
عِلمُ الكَلام: مَا يُبْحَث فِيهِ عَن ذَات الله تَعَالَى، وَصِفَاته، وأحوال الممكنات فِي المبدأ والمعاد، على قانون الْإِسْلَام،
وَقيل: علم يبْحَث فِيهِ عَن الْأَعْرَاض الذاتية للموجود من حَيْثُ هُوَ هُوَ على قانون الْإِسْلَام،
وَقيل: علم يقدر مَعَه على إِثْبَات العقائد الدِّينِيَّة بإيراد الْحجَج وَدفع الشُّبْهَة.
(مقاليد العلوم-جلال الدين السيوطي-توفي: ٩١١ هـ/ ١٥٠٥ م)

القرآن والأخبار؛ ثم ألقى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مُخالفةً للسُّنة؛ فلهجوا بها، وكادوا يُشوشون عقيدة الحقِّ على أهلها.

فأنشأ الله تعالى، طائفة المتكلمين، وحرّك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة – ويقصد المعتزلة ودعوتهم خلق القرآن –، على خلاف السنة المأثورة، فمنه نشأ علم الكلام وأهله، فلقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله تعالى إليه، فأحسنوا الدفاع عن السنة، والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة، والتغيير في وجه ما أُحدث من البدعة.

وقد عاب الغزالي على المتكلمين منهجهم العلمي لأنهم اعتمدوا على مُقدمات تسلموها من خصومهم، واضطرهم إلى تسليمها؛ إما التقليد، أو إجماع الأمة، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار وكان أكثر خوضهم في استخراج تناقضات الخصوم، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئًا أصلاً، ولم يكن منهج الكلام عند الغزالي كافيًا، ولا لدائه الذي كان يشكوه شافيًا. فقد خاضوا في البحث عن (الجواهر والأعراض)[1] وأحكامها. ولكن لم يكن ذلك مقصود علمهم، ولم يبلغ كلامهم فيه الغاية

[1] الجوهر في الفلسفة ما قام بنفسه والعَرَض ما قام بغيره، وتناول هذا في تهافت الفلاسفة، فقال: قد يختلفون على لفظ مجرد وطريقة استعماله اختلافهم على الاسم جوهر حين يشيرون به إلى الله فيقول بعضهم عن الجوهر إنه الموجود لا في الموضوع أي أنه القائم بنفسه الذي لا يحتاج إلى مقوم يستند إليه ويرد عليهم آخرون بقولهم: إن الجوهر إنما يتميز في مكانه، فيقول الغزالي: إننا إذا تفقنا على معنى اللفظ بأنه قيام الموجود بنفسه دون حاجة منه إلى سواه فماذا يهم إذا أطلقنا على مثل هذا الموجود اسم جوهر أم لم نطلقه؟ إنما يكون من قبيل البحث اللغوي الذي لا ضير علينا منه.

القصوى، لذلك لم يحصل منه ما يمحو بالكلية ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق.

الفلسفة

الفلسفة[1] هي دراسة المبادئ الأولى وتفسير المعرفة تفسيراً عقلياً. وكانت الفلسفة تشمل العلوم جميعها، ثم اقتصرت على المنطق، والأَخلاق، وعلم الجمال، وما وراءَ الطبيعة.

قاعدة: من الفلسفة ما يُذمُّ وما يُكفَّر فيه قائله وما يُبدَع فيه

يرى الغزالي بموضوعيته أن من الفلسفة ما يُذمُّ وما لا يُذمُّ، وما يُكفّر فيه قائله، وما لا يُكفّر، وما يُبدَع فيه وما لا يُبدَع، وبيان ما سرقوه من كلام أهل الحق، وما مَزجوه بكلامهم لترويج باطلهم في دَرج ذلك، وكيفية حصول نفرة النفوس من ذلك الحق وكيفية استخلاص الحقائق الخالصة من الزيف والبهرج من جملة كلامهم.

قاعدة: لا يقف على فساد نوع من العلم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم

يقول الغزالي: علمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك العلم، ثم يزيد عليه، ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم، من غوره[2] وغائله، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقًا. ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك، ولم يكن في كتب المتكلمين من كلامهم – حيث

[1] المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ - ١٩٦٠ م
[2] عمقه وقدره

اشتغلوا بالرد عليهم – إلا كلمات معقدة مبددة ظاهرة التناقض والفساد، لا يُظن الاغترار بها بعاقل عامي، فضلا عمن يدعي دقائق العلم، فعلمت أن ردَّ المذهب قبل فهمه والإطلاع على كنهه رميٌ في عماية[1].

وبرأي الغزالي؛ فأهل الفلسفة أصناف، وعلومهم أقسام، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم، في البُعد عن الحق والقُرب منه.

وهم على كثرة فِرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلهيون.

الدهريون

هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر، العالم القادر، وزعموا: أن العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، وبلا صانع، ولم يزل الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان، كذلك كان، وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة.

الطبيعيون

هم قوم أكثروا بحثهم عن عالَم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات، وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات. فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى، وبدائع حكمته، مما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم، مُطِّلع على غايات

[1] رمي في ظلمة دون معرفة

الأمور ومقاصدها، ولا يُطالع التشريح، وعجائب منافع الأعضاء مُطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيّما بُنية الإنسان.

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم – لاعتدال المزاج – تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضًا، وأنها تَبطل ببُطلان مزاجه فينعدم، ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم، كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة، وأنكروا الجنة والنار، والحشر والنشر، والقيامة، والحساب، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب، ولا للمعصية عقاب، فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا إنهماك الأنعام. وهؤلاء أيضا زنادقة، لأن أصل الإيمان هو: الإيمان بالله واليوم الآخر، وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر، وإن آمنوا بالله وصفاته.

الإلهيون

هم المتأخرون منهم (أي من المتفلسفة)؛ كسقراط وهو أستاذ أفلاطون، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس، وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق، وهذب لهم العلوم، وحرر لهم ما لم يكن محرراً من قبل، وأنضج لهم ما كان فجًا من علومهم، وهم بجملتهم، رُدوا على الصنفين الأولين من الدهرية، والطبيعية، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم؛ بتقاتلهم.

ثم رد أرسطاطاليس على أفلاطون وسقراط ومن كان قبلهم من الإلهيين، رداً لم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم، إلا أنه استبقى من رذاذ كفرهم، وبدعتهم، بقايا

لم يوفق للنزوع عنها، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين. كابن سينا والفارابي وأمثالهما.

إن النقد العلمي عند الغزالي؛ لا يسلم منه من برع في مجالات أخرى.

ولم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متلفسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين، وما نقله غيرهما ليس يخلو من تخبيط وتخليط، يتشوش فيه قلب المطالع، حتى لا يُفهم، وما لا يفهم كيف يُرد أو يُقبل؟ ومجموع ما صحَّ عندنا من فلسفة أرسطاطاليس، بحسب نقل هذين الرجلين ينحصر في ثلاثة أقسام:

- قسم يجب التفكير به.
- قسم يجب التبديع[1] به.
- قسم لا يجب إنكاره أصلا، فلنفصّله تاليًا.

علوم الفلاسفة

تقسم علوم الفلاسفة بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه إلى ستة أقسام رياضية، ومنطقية، وطبيعية، وإلهية، وسياسية، وخلقية.

الرياضية

تتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم، وليس يتعلق منه شيء بالأمور الدينية نفيًا وإثباتًا، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتهم بعد فهمها ومعرفتها. وقد تولدت منها آفتان:

[1] في الفلسفة والتصوُّف: إيجاد الشيء من عدم، فهو أخصُّ من الخلْق، العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر وآخرون، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م

الأولى: من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها، فيُحسن بسبب ذلك اعتقاده في الفلاسفة، فيحسب أن جميع علومهم في الوضوح وفي وثاقة البرهان كهذا العلم. ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تناولته الألسنة فيكفر بالتقليد المحض، ويقول: لو كان الدِّين حقا لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجورهم استدل على أن الحق هو الجحد والإنكار للدِّين، وكم رأيت من يَضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه[1].

وإذا قيل له: الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقًا في كل صناعة، فلكل صناعة أهلٌ بلغوا فيها رتبة البراعة والسبق، وإن كان الحمق والجهل يلزمهم في غيرها، فكلام الأوائل في الرياضيات برهاني وفي الإلهيات تخميني، لا يعرف ذلك من جربه وخاض فيه.

الثانية: نشأت من صديق للإسلام جاهل، ظن أن الدِّين ينبغي أن يُنصر بإنكار كل علم منسوب إليهم. فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع؛ فلما قرع ذلك سَمعُ من عرف ذلك بالبرهان القاطع، لم يشك في برهانه ولكن اعتقد أن الإسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع، فازداد للفلسفة حبًا وللإسلام بُغضًا، ولقد عَظُم على الدِّين جناية من ظن أن الإسلام يُنصر بإنكار هذه العلوم، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والإثبات، ولا في هذه العلوم تعرض للأمور الدينية.

[1] كأنه يصور وهو يذكر تأثير العلوم الرياضية ورد فعلها في كثير من ضعاف العقول، فظنوا أنها الطريق الأقوم وقلدوهم فيه.

المنطقيات

لا يتعلق شيء منها بالدِّين نفيًا وإثباتًا، بل هي النظر في طرق الأدلة[١] والمقاييس[٢]، وشروط مقدمات البرهان[٣]، وكيفية تركيبها، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه.

وأن العلم:

- إما تصور[٤]، وسبيل معرفته الحد[٥].
- وإما تصديق[٦]، وسبيل معرفته البرهان.

وليس في هذا ما ينبغي أن يُنكر، بل هو من جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الأدلة، وإنما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات بزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات.

مثال كلامهم فيها قولهم: إذا ثبت أن كل (أ)، (ب) لزم أن بعض (ب)، (أ) أي إذا ثبت أن كل إنسان حيوان لزم أن بعض الحيوان إنسان، ويعبرون عن هذا؛ بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية[٧].

فأي تعلق لهذا بمهمات الدِّين حتى يُجحد ويُنكر؟ فإذا أُنكر؛ لم يحصل من إنكاره عند أهل المنطق إلا سوء الاعتقاد في عقل المُنكر، بل في دِينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الإنكار، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم، وهو أنهم

[١] الذي يلزم لمعرفته معرفة شيء آخر
[٢] قول مركب من قضيتين أو أكثر متى سلم لزم عنه لذاته قول آخر
[٣] قياس مؤلف من مقدمات يقينية
[٤] عند المناطقة إدراك المفرد أي معنى الماهية من غير أن يحكم عليها بنفي أو إثبات
[٥] المانع والحاجز بين الشيئين وعند المناطقة القول الدال على ماهية الشيء
[٦] إدراك الحكم أو النسبة بين طرفي القضية
[٧] قضايا معروفة بمنطق أرسطو وقسمها إلى قضايا موجبة وأخرى سالبة وقسم كل منها إلى قسمين: موجلة كلية وموجبة جزئية وسلبية كلية وسالبة جزئية

يجمعون للبرهان شروطًا يعلم أنها تورث اليقين لا محالة، لكنهم عند الانتهاء إلى المقاصد الدينية ما أمكنهم الوفاء بتلك الشروط، بل تساهلوا غاية التساهل، وربما يَنظر في المنطق أيضًا من يستحسنه ويراه واضحًا، فيظن أن ما يُنقل عنهم من الكفريات مُؤيدٌ بمثل تلك البراهين، فيستعجل بالكفر قبل الانتهاء إلى العلوم الإلهية؛ فهذه الآفة أيضًا مُتطَرقة إليه.

علم الطبيعيات

هو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الأجسام المفردة: كالماء والهواء والتراب والنار، وعن الأجسام المركبة، كالحيوان والنبات والمعادن، وعن أسباب تغيرها وامتزاجها، وكذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الإنسان، وأعضائه الرئيسية والخادمة، وأسباب استحالة مزاجه وكما ليس من شرط الدين إنكار علم الطب، فليس من شرطه أيضا إنكار ذلك العلم، إلا في مسائل معينة، وذكرناها في كتاب تهافت الفلاسفة وما عداها مما يجب المخالفة فيها؛ فعند التأمل يتبين أنها مندرجة تحتها، وأصل جملتها: أن تعلم أن الطبيعة مسخرة لله تعالى، لا تعمل بنفسها، بل هي مستعملة من جهة فاطرها، والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته.

الإلهيات

وفيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق.

لذلك كَثُر الاختلاف بينهم فيه، ولقد قَرُب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الإسلاميين، على ما نقله الفارابي وابن سينا، ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها، وتبديعهم في سبعة عشر. ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين صنفنا كتاب التهافت أما المسائل الثلاث، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين، وذلك في قولهم:

١- إن الأجساد لا تحشر، وإنما المثاب والمعاقب هي الأرواح المجردة، والمثوبات والعقوبات روحانية لا جسمانية. ولقد صدقوا في إثبات الروحانية: فإنها كائنة أيضا، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به.

٢- ومن ذلك قولهم: إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات؛ فهو أيضًا كُفرٌ صريحٌ، بل الحق أنه: **لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** (سبأ: ٣).

٣- ومن ذلك قولهم: بِقِدم العَالَم وأزليته، ولم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل.

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات، وقولهم: إنه عليم بالذات، ولا يعلم زائد على الذات وما يجري مجراه؛ فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك. وقد ذكرنا في كتاب فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة ما يتبين به فساد رأي من يتسارع إلى التكفير في كل ما يخالف مذهبه.

السياسيات

يرجع جميع كلامهم فيها إلى الحكْم المصلحية المتعلقة بالأمور الدنيوية، والإيالة[1] السلطانية؛ أي الأراضي التي تحت حكم السلطان، وإنما أخذوه من كتب الله المنزلة على الأنبياء، ومن الحكم المأثورة عن سلف الأنبياء عليهم السلام.

الخُلقية

يرجع جميع كلامهم فيها إلى حصر صفات النفس وأخلاقها، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها، وإنما أخذوها من كلام الصوفية، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق إلى الله تعالى بالإعراض عن ملاذ الدنيا، وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق الناس وعيوبها، وآفات أعمالها ما صرحوا بها، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم توسلاً بالتجمل بها إلى ترويج باطلهم. وقد تولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان: آفة في حق القابل، وآفة في حق الراد.

١ – أما الآفة التي في حق الراد؛ فعظيمة؛ إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مُدوّنًا في كتبهم، وممزوجًا بباطلهم، ينبغي أن يُهجر ولا يُذكر بل يُنكر على كل من يذكره إذ لم يسمعوه أولاً منهم، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطلٌ، لأن قائله مُبطلٌ.

وإن من أقل درجات العالِم: أن يتميز عن العامي الجاهل.

[1] الإيالة: الوادي، قطعة من أَرض الدولة يحكمها والٍ من قِبل السلطان (المعجم الوسيط - مجمع اللغة العربية بالقاهرة)

ثم إذا نَسبت الكلام وأسندته إلى قائل حَسَّن فيه اعتقادهم، قبلوه وإن كان باطلاً، وإن أَسندته إلى من ساء فيه اعتقادهم ردوه وإن كان حقًا، فأبدًا يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال! هذه آفة الرد.

٢ – والآفة الثانية آفة القبول: إن من نظر في كتبهم كإخوان الصفا وغيره، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية، والكلمات الصوفية، ربما استحسنها وقبلها، وحسن اعتقاده فيها، فيسارع إلى قبول باطلهم الممزوج به لحسن ظنِّه مما رآه استحسنه، وذلك نوع استدراج إلى الباطل.

مذهب التعليم وغائلته

نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، وأنا قررت شبهتهم إلى أقصى الإمكان ثم أظهرت فسادها بغاية البرهان.

قاعدة: معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم

إن دعواهم أنه: لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم وظهرت حجتهم في إظهار الحاجة إلى التعليم والمعلم، وضَعفُ قول المنكِرين في مقابلته، فاغترّ بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين، ولم يفهموا أن ذلك لِضعف ناصر الحق وجهله بطريقه، بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلم، وأنه لا بد وأن يكون المعلم معصومًا.

ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإذا قالوا: هو ميتٌ؛ فنقول: ومعلمكم غائبٌ؛ فإذا قالوا: معلمنا قد علَّم الدعاة وبثهم في البلاد، وهو

ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مُشكِل؛ فنقول: ومعلمنا قد علَّم الدعاة وبثهم في البلاد وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي** (المائدة: ٤) وبعد كمال التعليم لا يضرُّ موت المعلم كما لا يضرُّ غيبته.

قاعدة: الحكم بغالب الظن؛ لأن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية

قولهم: كيف تحكمون فيما لم تسمعوه؟ أبالنص ولم تسمعوه، أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنَّةُ الخلاف؟ فنقول: نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله عليه الصلاة والسلام إلى اليمن؛ أن نحكم بالنص عند وجود النص، وبالاجتهاد عند عدمه؛ بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصي البلاد إذ لا يمكنه أن يحكم بالنص؛ فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة إلى بلدة الإمام، وأن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات، وفات الانتفاع بالرجوع، فمن أشكلت عليه القبلة؛ ليس له طريق إلا أن يُصلي بالاجتهاد، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام لمعرفة القبلة، فيفوت وقت الصلاة. فإذن، جازت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن.

كذلك في المذاهب؛ فردُّ الخلق إلى الاجتهاد ضرورة؛ فيكون الحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود، وربما أخطأوا فيه، ولا سبيل إلى الأمن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات؛ فيكف يُطمع في ذلك؟.

هؤلاء، ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام، طالما جربناهم فصدّقناهم في الحاجة إلى التعليم، وإلى المعلم المعصوم وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها، فضلا عن القيام بحلها! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب، وقالوا: إنه لابد من السفر إليه، والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به، ولم يتعلموا منه شيئا أصلاً، كالمتضمخ[1] بالنجاسة، يتعب في طلب الماء حتى إذا وجده لم يستعمله، وبقي متضمخًا بالخبائث. ومنهم من ادعى شيئًا من علمهم، فكان حاصل ما ذكره شيئًا من ركيك فلسفة فيثاغورس وهو رجل من قدماء الأوائل، ومذهبه أركّ مذهب الفلسفة، وقد رد عليه أرسطاطاليس، بل استدرك كلامه واسترذله، وهو المحكي في كتاب إخوان الصفا وهو على التحقيق حشو الفلسفة.

هؤلاء جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم، في رجع حاصلهم إلى استدراج العوام، وضعفاء العقول ببيان الحاجة إلى المعلم، ومجادلتهم في إنكارهم الحاجة إلى التعليم بكلام قويٍ مفحمٍ، حتى إذا ساعدهم على الحاجة إلى المعلم مساعد، وقال: هات علمه وأفدنا من تعليمه!؛ فهذه حقيقة حالهم فأَخْبَرَهم تَقلُّهم[2] فلّما جربناهم نفضنا اليد عنهم أيضًا.

طرق الصوفية

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه

[1] ملطخًا بالطيب أو غيره مكثرًا منه
[2] تبغضهم، خبر الشيء: بلاه امتحنه وعرف خبره على حقيقته وسبر الشيء بمعنى خبره

عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم، بل بالذوق والسلوك[1]. وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها، في التفتيش عن صنفِي العلوم الشرعية والعقلية: إيمان يقيني بالله تعالى، وبالنبوة، وباليوم الآخر.

فهذه الأصول الثلاثة (تحتاج يقيناً) من الإيمان؛ كانت قد رسخت في نفسي، لا بدليل معين مجرد، بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها.

وكان قد ظهر عندي أنه لا مطمع لي في سعادة الآخرة إلا بالتقوى، وكفِّ النفس عن الهوى، وأن رأس ذلك كله، قطع علاقة القلب عن الدنيا، بالتجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكُنه الهمة على الله تعالى. وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال، والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي، فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدَقَت بي من الجوانب، ولاحظت أعمالي – وأحسنها التدريس والتعليم – فإذا أنا فيها مُقبل على علوم غير مهمة، ولا نافعة في طريق الآخرة.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعي الآخرة، قريباً من ستة أشهر ... ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة

[1] هو تهذيب الأخلاق والأعمال والمعارف وذلك اشتغال بعمارة الظاهر والباطن والعبد في جميع ذلك مشغول عن ربه إلا أنه منشغل بتصفية باطنه

والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب لذكر الله تعالى، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي، وثم رحلت منها إلى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي. ثم تحركتْ فيَّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه، فسرت إلى الحجاز، ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال إلى الوطن، فعاودته بعد أن كنتُ أبعدُ الخلق عن الرجوع إليه، فآثرت العزلة به أيضًا حرصًا على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعيشة، تُغيِّر فِيَّ وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة، وكان لا يصفو لي الحال إلا في أقوات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود إليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين، وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به. إني علمت يقينًا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويُبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم

وسكَنَاتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يُستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقةٍ طهارتها – وهي أول شروطها – تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء[1] بالكلية في الله؟!

وهذا آخرها بالإضافة إلى ما يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك إليه. ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات[2]، حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون أصواتًا ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، إلى درجات يضيق عنها النطق، فلا يحاول مُعبِّرٌ أن يُعبِّر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح؛ لا يمكنه الاحتراز عنه.

تخيلات الصوفية ومغالاتهم

وعلى الجملة، ينتهي الأمر إلى قُربٍ، يكاد يتخيل منه:

– طائفة الحلول: كأن يُقال إن الربَّ حلَّ محلَّ العبد أو حلَّ العبد محلَّ الرب وهذا من التجسيم.

[1] هو أن يفنى عن الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ، فناء عن الأشياء كلها شغلا بما فني به، والحق يتولى تصريفه يصرفه في وظائفه وموافقاته فيكون محظوظا فيما لله عليه مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات فلا يكون له إليها سبيلا وهو العصمة وذلك معنى قوله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: كنت سمعه الذي يسمع به ...

[2] أسماء مترادفة على معنى واحد وتحصل التفرقة في كمال الوضوح لا في أصله منزلة البصيرة من العقل منزلة نور العين من العين والمعرفة من البصيرة منزلة قرص الشمس لنور العين فتدرك بذلك الجليات والخفيات.

- طائفة الاتحاد: أي الاتحاد بين الربِّ وبين العبد.
- طائفة الوصول: كأن ينكشف له حِلية الحق، ويصير مستغرقًا به؛ فإن نظر إلى معرفته فلا يُعرف إلا الله تعالى، وإن نظر إلى همته فلا همة له سواه.

وكل ذلك خطأ، وقد بيّنا وجه الخطأ فيه في كتاب المقصد الأسنى.

وبالجملة فمن لم يُرزق منه شيئًا بالذوق، فليس يُدرِك من حقيقة النبوة إلا الاسم، وكرامات الأولياء، هي على التحقيق، بدايات الأنبياء. وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل إلى جبل حِراء حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد، حتى قالت العرب: إن محمداً عشق ربه.

وهذه الحالة يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها؛ فمن لم يُرزق الذوق، فيتيقنها بالتجربة والتسامع، وإن أكثر الصحبة، حتى يفهم ذلك بقرائن الأحوال يقيناً. ومن جالسهم، استفاد منهم هذا الإيمان فهم القوم لا يشقى جليسهم؛ فهذه ثلاث درجات: **يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** (المجادلة: ١١).

ووراء هؤلاء قوم جُهال، هم المنكرون لأصل ذلك، المتعجبون من هذا الكلام، ويستمعون ويسخرون، ويقولون: العجب! إنهم كيف يهذون! وفيهم قال الله تعالى: **وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ** (محمد: ١٦).

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم، حقيقة النبوة وخاصيتها ولا بد من التنويه على أصلها لشدة مسيس الحاجة إليها.

حقيقة النبوة واضطرار الخلق كافة إليها

الإنسان في أصل الفطرة خُلق خاليًا ساذجًا

إن جوهر الإنسان في أصل الفطرة، خُلق خاليًا ساذجًا لا خير معه من عوالم الله تعالى، والعوالم كثيرة لا يحصيها إلا الله تعالى، كما قال: **وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ** (المدثر: ٣١)، وإنما خَبَرُه من العوالم بواسطة الإدراك، وكل إدراك من الإدراكات خُلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات، ونعني بالعوالم، أجناس الموجودات.

المحسوسات

أول ما يُخلق في الإنسان حاسة اللمس، فيدرك بها أجناسًا من الموجودات: كالحرارة، والبرودة، والرطوبة، واليبوسة، واللين، والخشونة، وغيرها. واللمس قاصر عن الألوان والأصوات قطعًا، بل هي كالمعدوم في حسِّ اللمس.

ثم تُخلق له حاسة البصر، فيُدرك بها الألوان والأشكال، وهو أوسع عالم المحسوسات. ثم ينفتح له السمع، فيسمع الأصوات والنغمات، ثم يخلق له الذوق. وكذلك إلى أن يجاوز عالم المحسوسات، فيُخلق فيه التمييز، وهو قريب من سبع سنين، وهو طور آخر من أطور وجوده؛ فيُدرك فيه أموراً زائدة على عالم المحسوسات، ولا يوجد منها شيء في عالم الحس.

العقل

ثم يترقى إلى طولٍ آخر، فيُخلق له العقل، فيُدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات، وأموراً لا توجد في الأطوار التي قبله. ووراءَ العقل طورٌ آخر تفتح فيه عين أخرى يُبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل، وأموراً أُخَر، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز؛ من إدراك المعقولات، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز، وكما أن المميِّز لو عرضت عليه **مُدركَات العقل** لأباها واستبعدها، فكذلك بعض العقلاء أَبَوا مدركات النبوة واستبعدوها، وذلك عين الجهل: إذ لا مستند لهم إلا أنه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه، فيظن أنه غير موجود في نفسه.

قاعدة: أمور لا تقوم إلا بتوفيق وإلهام من الله

قَرَّب الله تعالى على خلقه؛ بأن أعطاهم نموذجًا من خاصية النبوة، وهو النوم، إذ النائم يُدرك ما سيكون من الغيب، إما صريحًا، وإما في كسوة مثال؛ يكشف عنه التعبير. وهذا لو لم يُجربه الإنسان من نفسه، وقيل له: إن من الناس من يسقط مغشيًا عليه كالميت، ويزول عنه إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب؛ لأنكره، وأقام البرهان على استحالته، وقال: القوى الحساسة أسباب الإدراك فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها، فبأن لا يُدرك مع ركودها أولى وأحق. وهذا نوع قياسي يكذبه الوجود والمشاهدة؛ فكما أن العقل طور من أطوار الآدمي، يحصل فيه عين يبصر بها أنواعًا من المعقولات، والحواس معزولة عنها؛ فالنبوة أيضًا: عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب، وأمور لا يُدركها العقل.

والشك في النبوة، إما أن يقع: في مكانها، أو في وجودها ووقوعها، أو في حصولها لشخص معين.

ودليل إمكانها ووجودها؛ وجود معارف في العالم لا يُتصور أن تُنال بالعقل، كعلم الطب والنجوم، فإن من بحث عنها عَلِم بالضرورة أنها لا تُدرك إلا بإلهام إلهي، وتوفيق من جهة الله تعالى، ولا سبيل إليها بالتجربة فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة، فكيف يُنال ذلك بالتجربة؟ وكذلك خواص الأدوية فتبين بهذا البرهان، أن في الإمكان وجود طريق لإدراك هذه الأمور التي لا يُدركها العقل.

قاعدة: أمور يمكن إدراكها في النوم

هو المراد بالنبوة، لا أن النبوة عبارة عنها فقط، بل إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة، ولها خواص كثيرة سواها. وما ذكرناه قطرة من بحرها، إنما ذكرناها لأن معك نموذجًا منها، وهو مدركاتك في النوم، ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم، وهي معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولا سبيل إليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً.

قاعدة: أمور يمكن الوصول لها بالذوق

أما ما عدا هذا من خواص النبوة، فإنما يُدرك بالذوق، والذوق بداية التجارب وبناء النموذج، من سلوك طريق التصوف، لأن هذا إنما فهمته بنموذج رزقته وهو النوم، ولولاه لما صدقت به. فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها نموذج، ولا تفهمها أصلا، فكيف تصدق بها؟ وإنما التصديق بعد الفهم.

وذلك نموذج تحصّل في أوائل طريق التصوف، فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس إليه؛ فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة.

قاعدة: أمور يمكن إدراكها بالقياس (المشاهدة والتجربة)

إن وقع لك الشك في شخص معين، أنه نبي أم لا؟ فلا يحصل اليقين إلا بمعرفة أحواله، إما بالمشاهدة، أو بالتواتر والتسامع، فإنك إذا عرفت الطب والفقه، يمكنك أن تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم، وسماع أقوالهم، وإن لم تشاهدهم، ولا تعجز أيضًا عن معرفة كون الشافعي رحمه الله فقيهًا، وكون جالينوس طبيبًا، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير؛ بل بأن تتعلم شيئًا من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما، فيحصل لك علمٌ ضروريٌ بحالهما؛ فكذلك إذا فهمت معنى النبوة؛

فأكثرت النظر في القرآن والأخبار، يصل لك العلم الضروري بكونه صلى الله عليه وسلم على أعلى درجات النبوة

وأعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب.

قاعدة: تكرار التجارب؛ مدخل لاكتساب العلوم الأولية

إذا جربت ذلك في ألف وألفين وآلاف، حصل لك علم ضروري لا تتمارى فيه.

فمن هذا الطريق اطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعبانًا، وشق القمر، فإن ذلك إذا نظرت إليه وحده، ولم تنضم إليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت أنه سحر وتخييل، وأنه من الله تعالى إضلال؛ فإنه؛ **يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** (فاطر: ٨).

وترد عليك أسئلة المعجزات، فإذا كان مستند إيمانك إلى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينجزم إيمانك بكلام مرتب في وجه الإشكالات والشبهة عليها، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك؛ حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين، كالذي يخبرك جماعة بخبر متواتر لا يمكنه أن يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري ولا يخرج من جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد؛ فهذا هو **الإيمان القوي العلمي**.

وأما الذوق فهو كالمشاهدة والأخذ باليد، ولا يوجد إلا في طريق الصوفية فهذا القدر من حقيقة النبوة كافٍ في الغرض الذي أقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه.

سبب نشر العلم بعد الإعراض عنه (عود على بدء)

إني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين، وبان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسبابٍ لا أحصيها، مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني ومرة بالقبول الإيماني: أن للإنسان بدنًا وقلبًا، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه، وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو؛ **إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (الشعراء: ٨٩)، وله مرض فيه هلاكه الأبدي الأخروي، كما قال تعالى: **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ** (البقرة: ١٠):

وإن الجهل بالله سُمٌّ مُهلك، وأن معصية الله بمتابعة الهوى، داؤه المُمرض، وأن معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى دواؤه الشافي، وأنه لا سبيل إلى معالجة البدن إلا بذلك.

وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الأطباء الذين أخذوها من الأنبياء، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الأشياء، فكذلك بان لي، على الضرورة بأن:

أدوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الأنبياء لا يُدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الأنبياء الذين أدركوا تلك الخواص بنور النبوة، لا ببضاعة العقل.

وكما أن الأدوية تُركَّب من أخلاط مختلفة النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سِرٍّ هو من قبيل الخواص.

فكذلك؛ العبادات التي هي أدوية داء القلوب، مركبة من أفعال مختلفة النوع والمقدار، حتى أن السجود ضعف الركوع، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار، ولا يخلو عن سِرٍّ إلهي فيها، يقتضيها بطريق الخاصية.

وكما أن في الأدوية أصولاً هي أركانها وزوائد هي متمماتها، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات.

وعلى الجملة فإن الأنبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب، وإنما فائدة العقل وتصرفه، إن عرفنا ذلك، وشهدَ للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعمى عن دَرَك ما يُدرك بعين النبوة، أخذ بأيدينا وسلمنا إليها تسليم العميان إلى العميان إلى القائدين،

وتسليم المرضى المتحيرين إلى الأطباء المشفقين؛ فإلى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك، إلا عن تفهم ما يلقيه الطبيب إليه.

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة، في مدة الخلوة والعزلة، ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة، ثم في حقيقة النبوة، ثم في العمل بما شرحته النبوة، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق، فنظرت إلى أسباب فتور الخلق، وضعف إيمانهم، فإذا هي أربعة:

١. سبب من الخائضين في علم الفلسفة.

٢. سبب من الخائضين في طريق التصوف.

٣. سبب من المنتسبين إلى دعوى التعليم.

٤. سبب من معاملة الموسومين بالعلم فيما بين الناس.

فإني تتبعت مدة آحاد الخلق، أسأل من يُقصِّر منهم في متابعة الشرع، وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسرّه، وقلت له: مالك تُقصِّر فيها؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا، فهذه حماقة؛ فإنك لا تبيع الاثنين بواحد، فكيف تبيع ما لا نهاية له بأيام معدودة؟ وإن كنت لا تؤمن، فأنت كافر، فدبِّر نفسك في طلب الإيمان، وانظر سبب كُفرك الخفي الذي هو مذهبُك باطنًا، وهو سبب جرأتك ظاهرًا، وإن كنت لا تُصرِّح به تجملاً بالإيمان وتشرفًا بذكر الشرع. والأقوال متوزعة؛ منها:

- قائل يقول: إن هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه، لكان العلماء أجدر بذلك، وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يُصلي، وفلان يشرب الخمر، وفلان يأكل

أموال الأوقاف وأموال اليتامى. وفلان يأكل إدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جراً إلى أمثاله.

- وقائل ثانٍ: يدعي علم التصوف، ويزعم أنه قد بلغ مبلغًا ترقى عن الحاجة إلى العبادة!.
- وقائل ثالث: يتعلل بشبهة أخرى من شبهات أهل الإباحة! وهؤلاء هم الذين ضلوا عن التصوف.
- وقائل رابع؛ لقي أهل التعليم فيقول: الحق مُشكِل، والطريق متعسرة والاختلاف فيه كثير، وليس بعض المذاهب أولى من بعض، وأدلة العقول متعارضة، فلا ثقة برأي أهل الرأي. والداعي إلى التعليم متحكم لا حجة له، فكيف أَدعُّ اليقين بالشك؟
- وقائل خامس يقول: لست أفعل هذا تقليداً، ولكنني قرأت علم الفلسفة، وأدركت حقيقة النبوة، وإن حاصلها يرجع إلى الحكمة والمصلحة، وأن المقصود من تعبداتها ضبط عوام الخلق وتقيدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف، وإنما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير، مستغن فيها عن التقليد، وهذا منتهى إيمان من قرأ مذهب فلسفة الإلهيين منهم، وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي. وهؤلاء هم المتجملون بالإسلام.
- وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ويحضر الجماعات والصلوات، ويعظم الشريعة بلسانه، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر، وأنواعا من الفسق

والفجور، وإذا قيل له: إن كانت غير صحيحة فلم تصلي؟ فربما يقول: لرياضة الجسد، ولعادة أهل البلد، وحفظ المال والولد.

- وربما قال: الشريعة صحيحة، والنبوة حق فيقال: فلم تشرب الخمر؟ فيقول: إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء، وأنا بحكمتي محترز عن ذلك، وإني أقصد به تشحيذ خاطري. حتى أن ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها: إنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا، وأن يُعظّم الأوضاع الشرعية، ولا يُقصّر في العبادات الدينية، ولا يشرب تلهيًا بل تداويًا وتشافيًا فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان، والتزام العبادات، أن استثنى شرب الخمرة لغرض التشافي، فهذا إيمان من يدعي الإيمان منهم، وقد انخدع بهم جماعة، وزادهم انخداعًا ضعف اعتراض المعترضين عليهم، إذ اعترضوا بمجاهدة علم الهندسة والمنطق، وغير ذلك مما هو ضروري لهم، على ما بيّنا علته من قبل.

نقد الصوفية والخروج من العزلة لإحياء دَور العالِم الحق

لما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملبَّة[1] بكشف هذه الشبهة، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، ولكثرة خوضي في علومهم وطرقهم، وأعني طرق الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء. انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة، وقد عمَّ الداء، ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك! ثم قلت في نفسي: متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة

[1] لزم المكان وأقام به واجتمعوا فيه

هذه الظلمة، والزمان زمان الفترة، والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق، عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر.

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة. فقدَّر الله تعالى أن حرَّك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من خارج. فأمر أمرَ إلزامٍ بالنهوض إلى نيسابور، لتدارك هذه الفترة، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي لو أصررت على الخلاف إلى حد الوحشة، فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة، وطلب عزّ النفس وصونها عن أذى الخلق، ولم ترخص لنفسك عسر معاناة الخلق.

يقول عز وجل لرسوله وهو أعزَّ خلقه: **وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ** (الأنعام: ٢٤)،

ويقول عز وجل: **يس * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ * إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * تَنزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ * لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ * لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ * وَجَعَلْنَا مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ * وَسَوَاءٌ**

عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ (يس: ١١–١٨)؛

فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات، فاتفقوا على الإشارة بترك العزلة، والخروج من الزاوية، وانضاف إلى ذلك **منامات من الصالحين كثيرة متواترة**، وتشهد بأن هذه الحركة مبدأ خيرٍ ورشدٍ قدرها الله سبحانه على رأس هذه المائة فاستحكم الرجاء، وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه بإحياء دينه على رأس كل مئة، ويسر الله الحركة إلى نيسابور، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سن تسع وتسعين وأربع مئة، وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين وأربع مئة، وبلغت العزلة إحدى عشر سنة وهذه حركة قدرها الله تعالى، وهي من عجائب تقديراته التي لم يكن لهذا انقداح في القلب في هذه العزلة، كما لم يكن الخروج من بغداد، والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلا بالبال، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال و **(ما منْ قلبٍ إلا وهوَ معلقٌ بينَ إصبعينَ منْ أصابعِ الرحمنِ)**[1].

تصحيح مسار الإدراك واجب حتى على العالِم

أنا أعلم أني، وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت فإن الرجوع عود إلى ما كان وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم الذي به يُكتسب الجاه، وأدعو إليه بقولي

[1] الجامع الصغير، السيوطي، حديث صحيح

وعملي، وكان ذلك قصدي ونيتي. أما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه.

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي، يعلم الله ذلك مني وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري، ولست أدري أأصلُ إلى مرادي أم أُخترم دون غرضي؟

لكني أؤمن إيمان يقين ومشاهدة؛ أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك، ولكنه حركني، وإني لم أعمل، لكنه استعملني، فأساله أن يُصلحني أولا، ثم يُصلح بي، ويَهدني ثم يَهدي بي، وأن يُريني الحق حقًا ويَرزقني اتباعه، ويُريني الباطل باطلاً ويَرزقني اجتنابه، ونعود الآن إلى ما ذكرناه من أسباب ضعف الإيمان بذلك طريق إرشادهم وإنقاذهم من مهالكهم: أما الذين ادعوا الحيرة من أهل التعليم فعلاجهم ما ذكرناه في كتاب القسطاس المستقيم ولا نطوّل بذكره في هذه الرسالة.

حصر الشبه السبع

إن ما توهمه أهل الإباحة، فقد حصرنا شبههم في سبعة أنواع وكشفناها في كيمياء السعادة:

١– من فسد إيمانه بطريق **الفلسفة**، حتى أنكر أصل النبوة، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة، بدليل وجود عمل خواص الأدوية والنجوم وغيرهما. وإنما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك وأننا أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم، لأنه من نفس علمهم. ونحن نبين لكل عالِمٍ بفن من العلوم كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات؛ مثلاً من نفس علمه برهان النبوة.

٢- وأما من أثبت النبوة **بلسانه**، وسوّى أوضاع الشرع على الحكمة، فهو على التحقيق كافر بالنبوة، وإنما هو مؤمن بحكم له طالع مخصوص، ويقتضي طالعه أن يكون متبوعًا، وليس هذا من النبوة في شيء، بل الإيمان بالنبوة أن يقرَّ بإثباتِ طورٍ وراء العقل، تنفتح فيه عين يُدرك بها مدركات خاصة، والعقل معزول عنها، كعزل السمع عن إدراك الألوان، والبصر عن إدراك الأصوات، وجميع الحواس عن إدراك المعقولات، فإن لم يجوّز هذا، فقد أقمنا البرهان على إمكانه، بل على وجوده. وإن جوّز هذا، فقد أثبت أن هنا أموراً تُسمى خواصَّ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها.

٣- وأكثر براهين **الفلاسفة** في الطبيعيات والإلهيات، مبني على هذا الجنس! فإنهم تصوروا الأمور على قدر ما وجدوه وعقلوه، وربما لم يألفوه؛ فقدَّروا استحالته، ولو لم تكن الرؤيا الصادقة مألوفة، وادعى مُدَّعٍ، أنه عند ركود الحواس، يعلم الغيب، لأنكره المتصفون بمثل هذه العقول. ولو قيل لواحد: هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء، هو بمقدار حبة يوضع في بلدة، فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يبقى شيئًا من البلدة وما فيها، ولا يبقى هو نفسه؟ لقال: هذا محال وهو من الخرافات! وهذه حالة النار، يُنكرها من لم ير النار إذا سمعها. وأكثر إنكار عجائب الآخرة هو من هذا القبيل.

نور النبوة مدخل لإدراك العلم الضروري

فيا ليت شعري! من يُصدِّق بذلك ثم لا يتسع عقله للتصديق بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين، والظهر بأربع، والمغرب بثلاث، هو لخواص غير معلومة بنظر

الحكمة وسببها اختلاف هذه الأوقات. وإنما تدرك هذه الخواص بنور النبوة. والعجب أنّا لو غيرنا العبارة إلى عبارة المنجمين لعقلوا اختلاف هذه الأوقات، فنقول: أليس يختلف الحكم في الطالع؟ بأن تكون الشمس في وسط السماء، أو في الطالع أو في الغارب، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج وتفاوت الأعمار والآجال، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب، فهل لتصديق ذلك سبب، وإلا أن ذلك يسمعه بعبارة منجم، لعله جرب كذبه مئة مرة. ولا يزال يعاود تصديقه، حتى لو قال المنجم له: إذا كانت الشمس في وسط السماء ونظر إليها الكوكب الفلاني، والطالع هو البرج الفلاني، فلبست ثوبًا جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب! فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت، وربما يُقاسي فيه البرد الشديد، وربما سمعه من منجم وقد جرب كذبه مرات!.

فليت شعري! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر إلى الاعتراف بأنها خواص – معرفتها لبعض الأنبياء – فيكف يُنكر مثل ذلك، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات، لم يُعرف قط بالكذب! ولِمَ لا يتسع لإمكانه؟ فإن أنكر فلسفي إمكان هذه الخواص في أعداد الركعات، ورمي الجِمار وعدد أركان الحج، وسائر تعبدات الشرع، لم يجد بينها وبين خواص الأدوية والنجوم فرقًا أصلاً. فإن قال: وقد جربت شيئًا من النجوم وشيئًا من الطب، فوجدت بعضه صادقًا، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته، وهذا لم أجربه به، فبمَ أعلم وجوده وتحقيقه؟ وإن أقررت بإمكانه؟ فأقول: إنك لا تقتصر على تصديق

ما جربته بل سمعت أخبار المجربين وقلدتهم، فاسمع أقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع، واسلك سبيلهم تُدرك بالمشاهدة بعض ذلك.

على أني أقول: وإن لم **تجربه**، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعًا. فإنّا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب المرض، فمرض، وله والد مشفق حاذق بالطب، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل، فعجن له والده دواء، فقال: هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك. فماذا يقتضيه عقله، وإن كان الدواء مُرًا كريه المذاق، أن يتناول أو أن يُكذّب؟ ويقول: أنا لا أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء، ولم أجربه! فلا شك أنك تستحمقه إن فعل ذلك! وكذلك يستحمقك أهل البصائر في توقفك! فإن قلت: فيم أعرف شفقة النبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته بهذا الطب؟ فأقول: وبم عرفت شفقة أبيك وليس ذلك أمرا محسوسًا؟ بل عرفتها بقرائن أحواله وشواهد أعماله في مصادره وموارده علمًا ضروريًا لا تتمارى فيه.

ومن نظر في أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق، وتلطفه في جرِّ الناس بأنواع الرفق واللين واللطف، إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين، وبالجملة إلى ما يُصلح به دينهم ودنياهم حصل له علم ضروري، بأن شفقته صلى الله عليه وسلم على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده. وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال، وإلى عجائب الغيب

الذي أخبر عنه القرآن على لسانه، وفي الأخبار وإلى ما ذكره في آخر الزمان، فظهر ذلك كما ذكره:

> عَلمَ علمًا ضروريًا أنه بلغ الطور الذي وراء العقل، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يُدركه إلا الخواص، والأمور التي لا يُدركها العقل؛ فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم.

فجرب وتأمل القرآن وطالع الأخبار، تعرف ذلك بالعيان. وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة، ذكرناه لشدة الحاجة إليه في هذا الزمان.

٤- وأما السبب الرابع، وهو ضعف الإيمان بسبب سيرة العلماء فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور:

٥- أحدهما: أن نقول: إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر، ولحم الخنزير والربا، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة، وأنت تعرف ذلك وتفعله، لا لعدم إيمانك بأنه معصية، بل لشهوتك الغالبة عليك، فشهوته كشهوتك، وقد غلبته كما غلبتك، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين.

وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد، وإن زجره الطبيب عنه! ولا يدل ذلك على أنه ضار أو على الإيمان بالطب غير صحيح، فهذا محمل هفوات العلماء.

٦- والثاني أن يقال للعامي: ينبغي أن تعتقد أن العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة، ويظن أن علمه ينجيه، ويكون شفيعًا له حتى يتساهل معه في أعماله، لفضيلة علمه. وإن جاز أن يكون زيادة حجة عليه، فهو يجوز أن يكون زيادة

درجة له وهو ممكن. فهو وإن ترك العمل، يدلي بالعلم. وأما أنت أيها العامي! إذا نظرت إليه وتركت العمل وأنت عن العلم عاطل، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك.

٧- والثالث: هو الحقيقة، أن العالم الحقيقي لا يقارف معصية إلا على سبيل الهفوة، ولا يكون مصّرًا على المعاصي أصلاً. إذ العلم الحقيقي ما يُعرف أن المعصية سهمٌ مهلكٌ، وأن الآخرة خيرٌ من الدنيا. ومن عرف ذلك، لا يبيع الخير بما هو أدنى منه. وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس. فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم إلا جرأة على معصية الله تعالى. وأما العلم الحقيقي، فيزيد صاحبه خشية وخوفًا ورجاءً، وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات وذلك لا يدلُّ على ضعف الإيمان. فالمؤمن مفتنٌ توابٌ وهو بعيد عن الإصرارِ والإكبابِ.

الفصل الثالث

مثال عن جدليات حول إثبات وجود إله فيزيائيا

هل يمكن للفيزياء إثبات وجود إله؟ سؤال طرحته عالمة الفيزياء (مونيكا غرادي) أستاذة علوم الفضاء والكواكب في الجامعة المفتوحة في بريطانيا، ونشرته صفحة BBC News البريطانية؛ بتاريخ ٩ مارس/آذار ٢٠٢١ (للاطلاع روابط النص العربي والإنكليزي)[١].

وحُق لهذه العالمة وغيرها أن تطرح السؤال الذي تريده ما دامت ترغب بسبر الحقيقة، وحَقٌ علينا أن نجيب بطريقة علمية كما طلبت، وحَقٌ عليها أن تسمع جوابنا إن كان موضوعيًا، فالعلم يجعلنا نصغي للحقائق.

لقد طلبت هذه العالمة إثبات ما يتردد في مخيلتها وعقلها أو نفيه بطريقة علمية لا إيمانية عقائدية، وهذا طلب حق؛ فقد تأرجح حالها بين الإيمان والإلحاد كما ذكرت؛ وهذا التأرجح لا يكون إلا لاضطراب في رسم الصورة الكاملة، وسنحاول رسم تلك الصورة إجلاء لمن طلب الحقيقة وآمن بها.

لقد تكرر هذا السؤال، وأجاب عنه فقهاء وعلماء مسلمون رداً على شبهاته وإشكالياته، كما أن هناك علماء فيزياء مسلمون وقعوا في الإشكالية نفسها؛ ثم

---

[١] BBC NEWS: Source article: Monica Grady, Can physics prove if God exists?, The Open University, 2nd March 2021, LIFE'S BIG QUESTIONS | PHYSICS
Arabic version: https://www.bbc.com/arabic/vert-fut-56326887.
English version: https://www.bbc.com/future/article/20210301-how-physics-could-prove-god-exists

وصلوا للحقيقة بطريقتهم، ساعدهم في ذلك خلفيتهم الإسلامية وإجادتهم للغة العربية؛ كحال البروفيسور العراقي الفيزيائي محمد باسل الطائي.

وعلى الرغم من ابتعاد تخصصي العلمي عن الفيزياء التي عرفتها خلال دراستي للثانوية العامة وما قبلها، إلا أن المقال أثار عندي أفكاراً رغبت أن تكون أجوبة لجدليات أثارتها (غرادي)؛ وسترتكز إجاباتي على منهجية البحث العلمي؛ فالسائلة تمتهن العلم سبيلاً، وغلطها المنهجي – برأينا – قادها لتلك الجدليات التي سنجيب عليها تباعاً.

– الجدلية ١: الأحداث المأساوية كالأوبئة تدفع للتساؤل عن مسألة وجود إله

> الأحداث المأساوية كالأوبئة، غالبًا ما تدفعنا للتساؤل عن مسألة وجود إله؛ فإذا كان هناك إله رحيم، فما السبب يا ترى في حدوث كارثة كهذه؟

هو رحيم حقًا، لأنه أرسل للناس تحذيراً قبل وقوع الخطر الأكبر؛ وهو العاقبة النهائية حيث نار جهنم لمن كفر به ولم يؤمن، لذلك انظرِ فلولا هذا الفيروس لما جلست في بيتك محجوزة ولا فكرت بما فكرت به لأنك كنت مشغولة عن التفكير بما يجب عليك التفكير به، وهو الإيمان بوجود إله.

لقد حذر رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم كل إنسان بقوله: (**اتق النار ولو بشق تمرة**)، والإتقاء تحوط، وشِق التمرة هو أقل تكلفة يمكن تحملها لدفع خطر أكبر يتجلى في دخول غير المؤمن بالله تعالى نار جهنم، والفارق كبير بين ألم دنيوي محمول وألم أبدي عظيم.

- الجدلية ٢: هل الإله قادرا على كسر قوانين الفيزياء؟

إذا لم يكن الإله قادرا على كسر قوانين الفيزياء؛ ربما يدفعنا ذلك للقول، إنه ليس بالقوة التي يُتوقع من كائن أسمى وأعلى أن يكون عليها. أما إذا كان بمقدوره تجاوز هذه القوانين؛ فلماذا لم نشهد في الكون من قبل أي دليل يثبت حدوث كسر لأيٍ من قوانين الفيزياء؟

هذا استنتاج صحيح، لكن القراءة قاصرة، فقد شهد الكون أدلة كثيرة على كسر قوانين الفيزياء، من ذلك:

هل من الضروري أن يشهد إنسان لا يتجاوز عمره ال ١٠٠ عام أحداثًا كونية لا يعلم مدة وجوده إلا من خلقه؟ وقد اختلفت التقديرات حول عمره بتباين شاسع ليس له تفسير إلا الخطأ في التقدير لضعف المعلومات – وسنتابع هذه الفكرة بعد قليل –.

إنه لا يصح طرح تساؤل عن مدى تقيّد الخالق بالقوانين التي وضعها هو نفسه؟ فإذا سلمنا أنه الخالق والصانع فكيف لا يستطيع؟ هذا هراء علمي.

خلق الله تعالى الكون وخلق الإنسان لعبادته وأوجد لهم القوانين والنواميس التي يتحركون على أساسها؛ فالشمس تعمل بقوانين تخصها لا تغادرها مطلقًا إلا إن أراد الله ذلك؛ وأمثلة ذلك:

- السكين قانونها الذبح؛ لكن الله تعالى أبطل هذه الوظيفة مع نبي الله إبراهيم وولده اسماعيل عليهما السلام.
- النار قانونها الحرق؛ لكن الله أبطل هذه الوظيفة مع إبراهيم عليه السلام عندما أراد قومه حرقه لأنه اتخذ إلها غير آلهتهم.

- كذلك أبطل الله تعالى قانون الحَمل مع مريم الصديقة عليها السلام؛ فخلق عيسى عليه السلام من دون أب، كما خلق من قبله آدم من دون أب ولا أم، وخلق حواء من دون أم، لتكون نماذج فريدة تمثل أجوبة لمثل تلك التساؤلات ولغيرها.

إنها خوارق لسنن الله تعالى في خلقه، فهو يفعل ما يريد ولا يُسأل عن ذلك. لذلك بمقدور الله تعالى إبطال مفعول قوانينه.

- الجدلية ٣: لا شيء قادر على الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء مما لا يعني وجود إله من عدمه

حتى الآن على الأقل، لم نرصد وجود أي شيء قادر على الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء. ولا يشير ذلك في حد ذاته، إلى أي أمر يتعلق بوجود إله من عدمه، بل يؤكد فقط ما نعرفه بأن الضوء يتحرك بسرعة فائقة بالفعل.

إن مرد هذا الفَرَض القاصر هو اعتبار المنهج التجريبي وحده دون المنهج العقلي، على اعتبار أن الحواس تقود العقل، وهذا لا يصلح في جميع الحالات، ولو أن السائلة زادت اطلاعها لأعطتنا رأيًا مغايرًا، وفي هذا الميدان فإن الخبر الصادق من الله تعالى حقيقةٌ مسلمٌ بها عند المسلمين، ولا فرق في القول بأنه لم يخبرنا أحد حتى الآن بوجود أي شيء قادر على الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء، فهذا مدخل استقرائي استند إلى المنهج التجريبي، ومعناه أن التتبع للتاريخ يُنبئ أن لا أحد أخبر بتلك المعلومة؛ فكان استقراءً وقراءة لمن سبق أن قَدَّم أخباراً.

أما الأخبار المذكورة في القرآن الكريم وفي أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى والتحيز، والذي قال عنه الله تعالى: **وَمَايَنطِقُعَنِالْهَوَى**؛ فهي حقائق مؤكدة.

تلك الحقائق تتوزع إلى ثلاثة أنواع وجميعها بدرجة يقينية:

١- حقيقة أدركتها حاسة الرؤية بالعين، سماها القرآن عين اليقين.

٢- حقيقة أدركتها حاسة السمع بالأذن، سماها القرآن علم اليقين.

٣- حقيقة أدركتها الحواس جميعها وأدركها العقل أيضا، سماها القرآن حق اليقين.

ومثال ذلك وارد في الجدلية التالية:

- الجدلية ٤: ينتقل الدوران المغزلي بين جسيمين بشكل فوري، وهذا يفوق سرعة الضوء

تبدي المعلومات الخاصة بحالة الدوران المغزلي تنتقل بين الجسيمين بشكل فوري. ويبدو أن مثل هذا الانتقال لتلك المعلومات الكمية، يحدث بسرعة تفوق سرعة الضوء.

إن كلمة يبدو تجعل الحقيقة قاصرة على الرؤية وليس المقصود بالرؤية المشاهدة بالعين بل الرؤية التصورية المرسومة في العقل المستنبط، وهنا تقع السائلة في فخ الشرط الذي وضعته لنفسها، بأن من أراد أن يحاورها فبالتجربة المحسوسة بعيداً عن الايمانيات وذلك لأن مصدرها الاستنباط العقلي المستند إلى الخبر الصادق.

وبالعودة إلى جدلية تحديد عمر الكون السابقة، ننتقل إلى الجدلية التالية لأنها ذات علاقة:

- الجدلية ٥: إذا كان هناك إله؛ فسيطرح ذلك سؤالا عما إذا كان سيتقيد بالقوانين والقواعد العلمية

إذا كان هناك إله؛ فسيطرح ذلك سؤالا عما إذا كان سيتقيد بالقوانين والقواعد العلمية، كقوانين الفيزياء أم لا لكن الأمر يصبح أكثر إثارة، عندما نفكر في المسافة التي قطعها الضوء منذ ميلاد الكون، أو بالأحرى منذ أن وُجِدَ الكون الذي يمكننا إدراكه، قبل ١٣.٨ مليار سنة. فوفقا للنظرية التقليدية التي تتحدث عن أن الكون نشأ نتيجة حدوث ما يُعرف بالانفجار العظيم، وبافتراض أن الضوء يتحرك بسرعة ١٨٦ مليون ميل في الثانية الواحدة، يمكننا القول: إن الضوء قطع منذ ذلك الحين، مسافة قدرها ١٣ وأمامها ٢٢ صفرا من الكيلومترات.

...

إذا كان الكون يتمدد بمعدل يصل إلى ٧٠ كيلومترا في الثانية لكل مليون فرسخ فلكي، ما يعني أن المسافة إلى حافة الكون تبلغ بالتقديرات الحالية ٤٦ مليون سنة ضوئية، وبناء على أن حجم الفضاء يزداد بمرور الوقت، يعني كل ذلك، أنه بات يتعين على الضوء الآن، الانتقال لمسافة أطول للوصول إلينا .

حقًا هذه معلومات وصل إليها العلم حديثًا، لكن التعامل مع كلام الله تعالى بوصفه الخبر الصادق قد أوصلنا إلى الحقائق ذاتها، فقد أخبرنا أن الكون يتوسع: **وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ**، وكذلك كان قوله: **وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**.

ولا مانع أن يضع العلماء ما شاءوا من الفروض ثم يسعون إلى إثباتها، لكن ورود أخبار تفيد بأنها حقائق أمر مفيد وموفر للوقت وللجهد، ولا مانع من السعي لإثبات مدى صحتها؛ بينما كان موقف المسلم المؤمن هو التسليم بكلام الله تعالى بوصفه الخالق المدبر، وهذا ما يُسمى بالإيمان، ثم لا حرج أن يسعى من أراد التثبت أن يفعل ذلك.

لقد ساق لنا القرآن الكريم قصة (الخضر) مع نبي الله (موسى) عليهما السلام بثلاثة قصص ليتعلم الناس حركة القدر، وكيف يُسخّر الله من يختارهم لأداء بعض المهمات الاستثنائية. وكان الله في غنى عن ذلك، لكنه مدخل علمي يُسهّل على أصحاب المنهج التجريبي البناء عليه لفهم المنهج العقلي بدليل، وهذا من لطف الله تعالى وحكمته ورأفته بالإنسان.

- الجدلية ٦: ما يُزعج علماء الكونيات أن الكون أُعدّ بدقة كي توجد فيه الحياة بصورتها الحالية

إن من بين الأمور المزعجة لعلماء الكونيات، حقيقة أن كوننا يبدو وكأنه أُعدّ بدقة بالغة لكي توجد فيه الحياة بصورتها الحالية.

حقًا هذا كلام ممتاز، وهو فعلا مزعج إن بقي الإنسان وخاصة العالِم منكرًا لوجود مُدبِّر حكيم لكل ذلك، فالعاقل لا يقبل أبدًا أن يرى كل شيء منظم بدقة دون أن يكون هناك فاعل قد نظّم ودقّق، بينما المسلم المؤمن مهما قلَّ علمه تراه لا ينزعج؛ لأنه يعلم يقينًا أن الله تعالى هو الخالق وهو المصوّر وهو أحسن الخالقين.

مثال ذلك أن الله ذكر لنا مراحل خلق الإنسان من ١٤٤٢ عامًا، وأنه كائن مُكرم وليس كائنًا مُنحطًا؛ كما فعل داروين بنظرية التطور التي أطلقها وآمن بها كثيرون ثم ثبت لهم سخافتها وقلة حيلة داروين ومن ذهب مذهبه، قال الله تعالى: **ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.**

- الجدلية ٧: هل تساعد فيزياء الكم في تفسير فكرة وجود إله يستطيع أن يصبح في مكانينْ في آن واحد؟

هل يمكن لفيزياء الكم أن تساعد على تفسير فكرة وجود إله يستطيع أن يصبح في مكانيْن في آن واحد؟

سؤال كئيب جداً، فالإله الخالق موجود في كل مكان، ولا يجب طرح هكذا سؤال ممن امتهن العلم الرفيع. وعلى كل حال، هذا يسوقنا للجدلية التالية مباشرة لارتباطها بها:

- الجدلية ٨: هل يمكن للإله التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء؟

هل يمكن للإله التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء، التي تبلغ ١٨٦ مليون ميل في الثانية (٢٢٩٥٠٠ كيلومتر في الثانية)؟ لعلنا نذكر أننا نتعلم في مدارسنا، أنه لا يوجد ما يمكنه الحركة بسرعة تفوق سرعة الضوء، وهو ما ينطبق حتى على المركبة الفضائية، التي تظهر ضمن أحداث فيلم (ستار تريك)، باسم (يو إس إس إنتربرايز)، وهي سفينة فضاء تعجز عن القيام بعمل من هذا القبيل.

إن الكلام عن سرعة الضوء يستلزم معرفة المسافة والزمن، وأعتقد أن قياس المسافة لا يمكن أن يكون بمنهج تجريبي فلا أحد قام بأخذ مسطرة أو ما شابهها وقاس المسافة من الأرض حتى حافة الشمس التي هي مصدر الضوء، بل كان ذلك بمنهج استنباطي بحت.

ويلاحظ أن السائلة قد أغلقت على نفسها باباً عظيماً من أبواب المعرفة عندما استندت إلى ما ظنت أنه حقيقة مُسلّمة؛ بأن المدارس علمتها قاعدة لا يمكن تجاوزها.

بينما المسلمون يقولون: إن الله علَّمنا، وقد ذكر القرآن ذلك أكثر من مرة بأكثر من طريقة، فقال الله تعالى: **وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ**، والأمثلة كثيرة وكثيرة قد ذكرنا بعضها آنفًا.

لذلك يقف المنهج التجريبي عاجزًا عن كونه الأداة الوحيدة للإثبات، ولابد من المنهج الاستنباطي.

إن المنهج العقلي هو ذاته الذي يشكل الأساس للتعرف إلى خالق هذا الكون المتكامل المنسجم في كل جزئياته والذي لا يمكن أن يكون صدفة ولا يمكن أن يكون قد تطور تطورا طبيعيًا ذاتيًا. فالدقة المطلقة الموجودة في أصغر الأشياء وأعظمها، لا يستسيغ العقل الصحيح أن ذلك محض صدفة، وقد سجلت السائلة ذلك عندما قالت في جدلية سابقة: (حقيقة أن كوننا يبدو وكأنه أُعدّ بدقة بالغة لكي توجد فيه الحياة بصورتها الحالية)؛ قد اعتبرتها حقيقة!

إن أي اختراع قد استلزم تعاون الفكر البشري عقليًا وتجريبيًا لسنوات عديدة حتى استقر على حاله، ونتذكر أول تجربة طيران قام بها عباس بن فرناس؛ دفع حياته ثمنًا لها؛ بينما نعيش اليوم في طيران آمن ومريح وأقل خطرًا؛ فكيف بمن خلق كل شيء وأحسن خلقه على تمامه؟

إن الزمن مخلوق من مخلوقات الله شأنه شأن الجبال والسماء والأرض والشجر والحجر والإنسان ... الخ، وقد جعل الله الشمس والقمر أدلة لتمييز الأزمنة؛ فالقمر يميّز الأشهر، والشمس تميّز الأيام، أما عدد الشهور في السنة فهي إثنا عشر شهرًا لقوله تعالى: **إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا**.

ولفهم الزمن، نستذكر المنام والرؤية التي يراها النائم، فأغلب الدراسات أوضحت أن أطول منام لا يتعدى الدقيقة تقريبًا. فكيف يرى النائم الألوان والأشكال والأجسام ويتحرك لمسافات شاسعة بل ويشعر ويتفاعل وكأن أزمنة وأمكنة تحكم كل ذلك، ولربما رأى أناسًا أمواتًا أو أحياءً يعرفهم أو لا يعرفهم. واستدل الشيخ الشعراوي بذلك أن انفصال الجسد عن الروح مؤداه توقف الزمن، فالنوم مرحلة من مراحل الموت لقوله تعالى: **اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**؛ أي أن في الموت توقف للزمن لانفصال الروح عن الجسد، إذن الزمن لازم للحياة الدنيا وللعيش فيها؛ كما هو حال الهواء والماء، وقد خلقه الله تعالى لتمييز حركة الشمس والقمر دلالة على تلك الحركة ولمعرفة الحساب الدقيق. وبالعودة إلى سرعة الضوء؛ فلا يمكن تغافل قانون السرعة حيث لابد من مسافة وزمن، وسرعة الضوء التي تقارب ٣٠٠٠٠٠ كم/ ثانية عَرفها العلماء بعدما قدّروا المسافة وقاسوا وصول أشعة الشمس؛ فحددوا سرعة الضوء. وقد جعلت سرعة الضوء في الفراغ ثابتًا فيزيائيًا هامًا في العديد من مجالات الفيزياء، وهي تساوي بالدقة ٢٩٩،٧٩٢،٤٥٨ متر لكل ثانية. وهي نفسها المستخدمة لتعريف وحدة المتر باعتبارها معياراً دوليًا للقياس؛ فمن الشمس إلى الأرض: ٨،٣ دقيقة، ومن أقرب نجم إلى الشمس: ٤،٢ سنة ضوئية، ومن القمر إلى الأرض: ١،٣ ثانية، وهكذا.

لقد أظهرت حادثة الاسراء والمعراج خوارق للسرعة المعهودة حتى أيامنا هذه، وأعلمنا الله تعالى عن طريق نبيه بصفات الناقل لنعلم الوسائل التي مصدرها قوله سبحانه: **يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ**، فمن اكتشف الوسيلة هان عليه تجاوز السنن الموضوعة؛ فإذا كان هذا حال الخلق فكيف سيكون الكلام عن الخالق الذي لا نعرف له إلا صفاتًا حدثنا عنها أنبياؤه ورسله.

إذن التساؤل عن إمكانية تحرك الإله بسرعة تفوق سرعة الضوء، أمر بدهي لا ينبغي أن يكون من عالم فيزياء مُتمكن. ولا داعي لأن نظن بأن الإله قادر على تجاوز سرعة الضوء فمن يخلق من عدم لا يحده حدود الزمان والمكان والإمكانية؛ فالمشكلة كامنة عند الناس وليس عند الإله الخالق لأنه يقول للشيء كُن فيكون؛ فما حاجته ليكون في أزمة وضيق.

قال صلى الله عليه وسلم: **(يا عبادي لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وإنسَكم وجنَّكم كانوا على أفجَرِ قلبِ رجلٍ واحدٍ منْكم ما نقصَ ذلكَ من مُلْكي شيئًا ولو كانوا على أتقَى قلبِ رجُلٍ واحدٍ منكُم ما زادَ ذلكَ في مُلْكي شيئًا ولو قاموا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني فأعطيتُ كلَّ واحدٍ مسألتَهُ ما نقصَ ذلكَ مِمَّا عندي شيئًا)**؛ فأي تحدٍ هذا؟

إن التصور بأن تجاوز سرعة الضوء يجعلنا نعتقد بأن الإله سيكون قادراً على الوجود في مكانين في آن واحد تصور قاصر، فكلنا يعلم أن حركة الصور في التلفاز

والفيديو صارت مستمرة بعد تحريك الصور الثابتة بسرعة تتجاوز سرعة العين لتراها مستمرة متحركة؛ كخدعة بصرية، بسبب محدودية سرعة العين.

وقد سأل نبي الله موسى عليه السلام أن يرى ربه، فلما تجلى الله تعالى للجبل صار دكًا والتجلي هي مرحلة سابقة بكثير عن مرحلة الظهور والجبل العملاق لم يحتمل نور الله لأنه مخلوق بخصائص فيزيائية محدودة رغم أنه عظيم بالنسبة للإنسان؛ لكنهما لا شيء بالنسبة لمن خلقهما!

وهذا ما عبَّر عنه جبريل عليه السلام لنبي الله محمد صلى الله عليه وسلم عندما تركه عند سدرة المنتهى معتذراً لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه لو اقترب لاحترق لشدة النور؛ مع أن جبريل عليه السلام عندما وصفه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كبيراً جداً، يصعب تصوره من قبل إنسان محدود القدرات.

وبالعودة للمنهج التجريبي كأداة إثبات؛ نورد الأمثلة التالية:

- استخدم الحواريون من قوم عيسى عليه السلام المنهج التجريبي لإثبات إيمانهم بالله؛ فطلبوا مائدة تتنزل عليهم من السماء؛ ينزلها الله عليهم من السماء فيأكلون منها ليصدقوا، وقد أنزل الله تعالى مائدة عليهم؛ وتوعد من يكفر منهم بعد ذلك بعذاب أليم، وسميت سورة كبيرة في القرآن الكريم باسم المائدة تخليداً لهذه الحادثة.
- ذكر الله لنا حادثة رجل استنكر قدرة الله في إعادة الإحياء، فأخضعه الله تعالى للمنهج التجريبي فأماته وحماره مائة عام ثم لما أعاده للحياة؛ سأله: كم لبثت؟ فقال: يوما أو بعض يوم، فصحح الله له ذلك بأنه أماته ١٠٠ عام؛ لقد

توقف الزمن عند من أجريت عليه التجربة بسبب انفكاك الروح عن الجسد، ثم أعادهما الله تعالى بقدرته ليُشهده إعادة خلق الحمار عيانًا، فأسلم وآمن من فوره.

وبناء عليه؛ لا يصح إطلاق المنهج التجريبي لوحده، وإلا لكان لكل إنسان تجربته الخاصة، وبذلك ليس من فائدة لتمييز الإنسان عن غيره من المخلوقات بعقل مفكر. إن المنهج العقلي الاستنباطي منهج ضروري ليتعرف الإنسان على ما غاب عنه من أشياء سميت بالإيمانية بعد تلقيه للخبر الصادق من الخالق عزّ وجلّ، وهذا أليق بالفكر الإنساني، وأرقى لعقله، فهو قادر على ذلك، ولهذا ميزه الله تعالى عن باقي المخلوقات.

وهناك أمثلة كثيرة تحاكي ما ذكرناه.

- الجدلية ٩: المصادفة السعيدة

المصادفة السعيدة

ليس في العلم بشقيه العقلي والتجريبي مصادفات، فإن سلّمنا بأنها مصادفات فذلك سببه حجم العيّنة، فقانون الأعداد الكبيرة يُثبت لنا أنه كلما زاد حجم البيانات التي نُخضعها للتجربة كلما زادت صحة الحقيقة، فنسبة الوفيات على مستوى العالم دقيقة، ونسبتها تضعف كلما صغر حجم المجتمع المدروس، فهي أكثر تشتتا لو قدرناها على مستوى بلد محدد، وأضعف إذا قصرناها على مدينة معينة، وتستحيل إذا حاولنا التنبؤ بمن سيموت في شارع معين أو من سيموت في وقت ما.

لذلك؛ المصادفة مرتبطة بحجم العينة، وكونها سعيدة أمر نسبي فما هو سعيد لشخص قد يكون تعيس لغيره وما هو سعيد اليوم قد يكون تعيس غداً حتى للشخص ذاته. وإدخال العواطف مع الحقائق العلمية يُضعف المنهج التجريبي ويُعيبه، لذلك تعاني العينات المدروسة من درجة التحيز؛ لأنها تشوه الدراسات، وتأخذ بها نحو الخطأ الأكيد، والقول بالمصادفة السعيدة يجعلنا نقف على خلاف كبير مع السائلة التي طلبت الموضوعية والحياد في الإجابة، وقد التزمنا بها، بينما عبارة المصادفة السعيدة في هذا المقام تلونٌ وعدم التزام بالعلمية إطلاقًا.

- الجدلية ١٠: هل يقوم الإله بأكثر من مهمة معًا مع الحفاظ على نسيج الزمان والمكان بشكل طبيعي؟

ثمة صورة في ذهني للإله وهو ينقل المعلومات الكمية من كون لآخر للإبقاء على كل شيء في حالة حركة. بل ولحسن الحظ، بوسع هذا الإله القيام بأكثر من مهمة في الوقت ذاته، مع الحفاظ على نسيج الزمان والمكان قيد العمل بشكل طبيعي. ولا يتطلب تصديق ذلك والثقة فيه سوى أن يتحلى المرء بالقليل من الإيمان.

إن الصورة الذهنية المرسومة في هذه الجدلية هي حالة عقلية تحاول الاستنباط جاهدة، ثم تستثني السائلة بقولها: (سوى أن يتحلى المرء بالقليل من الإيمان)؛ لتكون نتيجة في الطريق الصحيح، ولو تحلت بكامل الإيمان لكان ذلك أكثر متانة من الناحية العلمية؛ فمن صفات الله تعالى ومن أسمائه أنه خبير، ولطالما جاءت هذه الصفة ملازمة مرة للعليم كقوله تعالى: **قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ**، ومرتين ملازمة للطيف، وثلاث مرات ملازمة للحكيم.

وهذه الجدلية مردها سَعة أفق السائلة وبساطة حيلتها، فالحركة بين مكانين أو زمنين صفة لمن هو محدود القدرة قاصر الحيلة، وليست لمن هو قادر عليم خبير حكيم، لذلك جاءت الجدلية بديهية على مستوى تفكير السائلة المجادلة رغم الصفات العلمية التي ألصقتها باسمها؛ فيبدو أن علومها لم تسعفها، وخبرتها لم تنجدها من الوقوع في هكذا أخطاء. وهذا يذكرنا بالأطفال الصغار الذين يطرحون أسئلة مشابهة ليس من غباء؛ بل من قلة علم، وضعف خبرة، وضحالة حكمة.

- الجدلية ١١: هل يدير الإله الكواكب بمهارة وكأنها كرات هائلة الحجم؟

هل يدير الإله صفائح بحجم المجرات حول نفسها، في وقت ينقل فيه الكواكب بحذق ومهارة من هنا لهناك، وكأنها كرات هائلة الحجم؟

هذه الجدلية تلحق بسابقتها، ونضيف عليها أن من يعجز عن تحريك كرة السلة لتكون في هدفها بشكل مستمر، لا يحق له أن يتجرأ على إله عليم خبير قادر بهكذا استفسار؟

ويجب أن تزيد السائلة علمها بخبر صادق؛ فنبي الله محمد صلى الله عليه أخبرنا أن هذا الكون ليس مجرد مجرات فيها كواكب وحسب بل أكثر من ذلك بكثير، فقال واصفًا كرسي الله تعالى: **(ما السمواتُ السبعُ في الكرسيِّ إلا كحَلْقةٍ مُلقاةٍ بأرضٍ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكرسيِّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلْقةِ)**، ولو ركز العلماء جهدهم على هذه الحقائق لوفروا كثيراً، وحققوا أكثر؛ ففي مصادر الشريعة الإسلامية العديد من تلك الحقائق الفيزيائية وغيرها.

- الجدلية ١٢: تقاطع الإيمان مع المنطق التجريبي العلمي يحتاج وقفة مع المنهج العلمي

القول بأننا بصدد نقطة يتقاطع فيها الإيمان الديني بالمنطق التجريبي العلمي؛ دون أن تكون هناك أي إجابة حقيقية يحتاج وقفة مع المنهج العلمي.

المنهج العلمي قسمان: عقلي يعتمد على الاستنباط، وتجريبي يعتمد على ما تقدمه الحواس من تجارب. ولا يصح قصر المنهج العلمي بالمنطق التجريبي ووصفه بالعلمي وإسقاط الجانب العقلي وإلا قارب الإنسان جنس الحيوانات التي تَبرع بالحسيات، فالصقر أحدّ رؤية، والحيتان أشد قوة وبأسا، والحمار أكثر تحملا، والقائمة تطول.

إن عمر الكون الذي ذكرته العالمة هو ١٣،٨ مليار عام بطريقة (Lambda–CDM concordance model) هو ليس مطلقًا؛ فمازالت الدراسات والنظريات تقدم إجابات جديدة، وهذا الرقم هو استنتاج عقلي إثر تتبع دلائل وصل إليها العلماء بالتجربة، فإذا اكتشف غيرهم أدلة جديدة فإن استنتاجات أخرى ستغير الرقم إلى تقديرات ذات تباين كبير، لذلك لا يصلح المنهج التجريبي بعيداً عن المنهج العقلي في هذا الاستنتاج. ومثال ذلك أن بيانات (تلسكوب سبيتزر) الفضائي، أظهرت قياساً جديداً لعمر الكون وهو ١٢،٦ مليار عام، أي نقص بأكثر من مليار سنة من القيمة التي رجحتها قياسات سابقة، وهذا التفاوت لن يقف طالما أن التجربة تتطور، فهل نوقف كل حياتنا على ما تطاله حواسنا ونجعل العقل أسيراً لها؟

- الجدلية ١٣: لا يحاول العلماء إثبات وجود إله فلا يمكن تأكيد مثل هذا الوجود عبر أي تجربة علمية

في واقع الأمر، ما نتحدث فيه يشكل مسألة يختلف فيها العلم مع الدين. فالعلم يحتاج إثباتات وأدلة، بينما تحتاج المعتقدات الدينية للإيمان بها.

لا يحاول العلماء إثبات وجود إله من عدمه، لأنهم يعلمون أنه لا يمكن تأكيد مثل هذا الوجود عبر أي تجربة علمية مهما كانت. يعود ذلك لأنك ترى أن أي شيء يوجد في كوننا سيتوافق مع وجود إله، ما يعني أن رؤانا حيال هذا الأمر، سواء كانت ذات طابع مادي فيزيائي أو غير ذلك، تعتمد في نهاية المطاف، على الزاوية التي ينظر منها كل منّا له.

لقد دعانا القرآن الكريم إلى استخدام كلا المنهجين لأن اجتماعهما فيه كمال الرؤية.

نضرب مثالا نبي الله إبراهيم عليه السلام، فقد ذكر لنا القرآن الحالات التي مرّ بها وصولا إلى الحقيقة المطلقة. فعندما بدأ التفكير بالملاحظة والمشاهدة راقب النجوم والكواكب واعتد بضابط البحث عن الأكبر ليتخذه إلها، ثم وبالتجربة ذاتها توصل إلى ضعف تلك الأشياء المرشحة أن تكون آلهة. فترك منهجه التجريبي وتحول إلى المنهج العقلي مستنبطًا أن وراء خلق كل تلك الأشياء خالق يستحق التقدير والعبادة، فآمن وأسلم وجهه لله تعالى دون أن يراه أو يسمعه أو يلمسه لأنه أيقن أن حواسه قاصرة تعجز أن تطال ما يفوق قدراتها، بينما العقل قادر على ذلك، وقد أوصله لمعرفة الله تعالى.

ويقودنا ذلك إلى الجدلية التالية:

- الجدلية ١٤: وجود إله لا يشكل تفسيرًا مقبولا للأمر من الوجهة العلمية

وجود إله لا يشكل تفسيرا مقبولا للأمر من الوجهة العلمية ... لا يمكن للمرء هنا، دحض فكرة أن هناك إلها، ربما يكون قد خلق هذه الأكوان المتعددة بدورها.

نتابع مع إبراهيم عليه السلام؛ حيث ذكر القرآن الكريم سعيه لمزيد من الطمأنينة؛ بإثبات إيمانه بالتجربة، وبهذا قدّم إبراهيم عليه السلام عُذرًا لكل من يميل إلى المنهج التجريبي؛ فطلب من الله أن يريه كيف يخلق؟ فقال الله تعالى له: أولم تؤمن؟ فقال: بلى ولكن ليطمئن قلبي، فطلب الله تعالى منه أن يأتي بطير فيقطّعه أربعة أجزاء ثم يضع كل جزء منهم على جبل ثم يدعوهم بإذن الله ليعودوا طيرًا كما كان، وقد حصل ذلك بالتجربة عيانًا.

لقد كانت تجربة ميدانية ليطمئن بها البشر إلى أن إلههم قادر لا يُعجزه شيء. ولكن هل يستوجب هذا الأمر أن كل من سيؤمن يحتاج تجربة حسية؟ بالطبع لا، بل هذه نماذج يُبنى عليها؛ كما هو الحال مع خرق القوانين في الأمثلة التي ذكرناها سابقًا.

حقًا إنها أجوبة فندت أربعة عشر جدلية قدمتها (أستاذة علوم الفضاء والكواكب في الجامعة المفتوحة في بريطانيا) رسمت صورة جلية، وحقًا إن الإيمان سببه أن الناس خلقت على الفطرة الحنيفية؛ لكن تشوه تلك الفطرة عند البعض مرده حصولهم على معلومات غير مؤكدة، وأخبار مزيفة، اصطنعها مغرضون فضلّوا السبيل وأضلّوا الناس.

الخاتمة

يتعلم الإنسان أعوامًا مديدة، ويُوغل في التعلم، ولربما صُنِّف من رتبة العلماء، وقد تكثر مؤلفاته وتصانيفه، ويُركز جهده على مسائل أصولية في العقيدة وغيرها، ولعله وصل إلى حقائق علمية قطعية؛ وقد تستغرق رحلته العلمية عمره كله.

هذا ما وضح في حالة حجة الإسلام الغزالي رحمه الله، فقد قضى عمره الذي ناهز الخمسين عامًا بسنوات قليلة، ألّف أكثر من مائتي مصنف وكتاب، وبلغ من العلم مبلغه، وحقق شهرة عالمية عندما كانت بغداد عاصمة العالم، وكان هو كبير علمائها وأستاذ جامعاتها ومساجدها.

فلما وجد الخلاف قد دبّ بين الفرق والمذاهب واختلف الناس، شمّر عن ساعد العمل فأمضى عشر سنين بين المختلفين ليكون بينهم، يقرأ ما كتبوه ويناقش علماءهم ويحاور متكلميهم، ثم قارعهم بالحجة التي برعوا فيها؛ فقارع أهل الكلام بالكلام وأهل الفلسفة بأنواعها بفلسفتهم وأهل التعليم من الباطنية بما اعتقدوه صحيحًا وأهل التصوف بما استغرقوه تأملاً وعزلة، فمدح محاسن كل فرقة ومذهب، ولم يبخسها حقها، كما ذمَّ مثالبها ومساوئها بموضوعية علمية دون تحيّز ودون مواربة.

وإن آخر ما وصل الغزالي إليه في رحلته العلمية الطويلة؛ فهي خلاصة تجربته العلمية النظرية والتطبيقية بأن العودة لكتاب الله تعالى وإكثار النظر فيه وفي أخباره والانكباب على سنة رسوله عليه الصلاة والسلام هي أساس إدراك الحقائق واكتساب العلم بأنواعه؛ الضروري، والغيبي، والتجريبي، والعقلي.

روى العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(فإنَّه مَن يَعِشْ منكم فسيَرَى اختِلافًا كثيراً، فعليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عليها بالنَّواجِذِ، وإيَّاكم ومُحدَثاتِ الأُمورِ؛ فإنَّ كُلَّ بِدعةٍ ضَلالةٌ)**[1]. لقد طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين أن يكونوا على طريقَته ونَهْجه، وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الَّذين هداهم الله وأرشَدهم إلى الحقِّ، وحذّرهم من الأُمور التي تحدثُ بعد ذلك وتُخالفُ أصل الدِّين.

فمهمة العلماء الربانيين هي صيانة المنهج الذي رسمه رسول الهدى للناس ليكونوا على خير؛ كما أراد الله لهم ذلك. أولئك العلماء تفقهوا وفقهوا يدافعون عن الحق إلى يوم القيامة. روى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ، ولا تَزالُ عِصابَةٌ مِنَ المُسْلِمِينَ يُقاتِلُونَ علَى الحَقِّ ظاهِرِينَ علَى مَن ناوَأَهُمْ، إلى يَومِ القِيامَةِ)**[2].

الدرس المستفاد

لعلنا نأخذ درسًا مما حصل مع الغزالي، فقد طال عنه الفتح وغاب، وبدراسة حركته فقد سافر من بغداد إلى دمشق ومسجدها الأموي إلى القدس ومسجدها بيت المقدس إلى المدينة المنورة ومسجدها النبوي إلى مكة وحرمها المكي ثم عودته إلى نيسابور، ثم جاءه المدد من الله ليخرج من عزلته وليحرر لنا كتابه المنقذ من الضلال ليكون منقذًا لهذه الأمة من السبل المتفرقة إلى صراط الله تعالى المستقيم وصية الله

[1] رواه ابن عبد البرّ، حديث ثابت صحيح.
[2] صحيح مسلم.

تعالى القائل: **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**، صدق الله العظيم.

والدرس المستفاد يلخصه قول المولى عزّ وجلّ: **إِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** (الأنبياء: ٩٢) وهذه آية من سورة (الأنبياء) التي تشير إلى أن أمتهم واحدة، وقال تعالى: **وَإِنَّ هَٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ** (المؤمنون: ٥٢) وهذه آية من سورة (المؤمنون)، والمتقين وهم أمة الإيمان المنتسبة لأمة الأنبياء عليهم السلام.

فلله درّ الغزالي؛ قد استحق لقب حجة الإسلام لأنه كان حجة في وجه الضلال ومحدثات الأمور وحامل رايتها؛ حيث أعاد الناس إلى سنة ومنهج رسول الله عليه الصلاة والسلام؛ ليكونوا من الفرقة الناجية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى ربه سامر مظهر قنطقجي في حماة (حماها الله)

بتاريخ ٧ شوال ١٤٤٢ هـ الموافق ١٩ أيار/ مايو ٢٠٢١ م

المراجع

١. التعريفات الفقهية، محمد عميم الإحسان ١٤٠٧ هـ/١٩٨٦ م.
٢. التفسير الكبير، فخر الدين الرازي، الباب ٢١، الجزء ١.
٣. الغني، عبد الغني أبو العزم، ١٤٢١ هـ ٢٠٠١ م.
٤. الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبدالله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري، توفي: نحو ٣٩٥ هـ – ١٠٠٥ م.
٥. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٣٧٩ هـ – ١٩٦٠ م.
٦. المنقذ من الضلال، أبو حامد الغزالي، ط ٢، ١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م، مطبقة الإيضاح.
٧. خواطر الشعراوي، سورة النبأ، سورة الاسراء.
٨. شمس العلوم، نشوان بن سعيد الحميري، ٥٧٣ هـ – ١١٧٧ م.
٩. قاموس التربية الخاصة، د. عبد العزيز السيد الشخص، د. عبد الغفار عبد الحكيم الدمياطي.
١٠. مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، (٦٦٦ هـ – ١٢٦٨ م).
١١. الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي، زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، المتوفى ١٠٣١ هـ، حققه أحمد مجتبى، دار العاصمة بالرياض.
١٢. سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث أبو داود السجستاني الأزدي، دار الفكر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ابن ماجه.
١٣. سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد أبو عبد الله القزويني، دار الفكر ببيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.
١٤. سنن الترمذي، كتاب الإيمان.

١٥. فيض القدير شرح الجامع الصغير من احاديث البشير النذير، محمد عبد الرؤوف المناوي ضبطه وصححه أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط ١، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

١٦. لباب التأويل في معنى التنزيل (تفسير الخازن)، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير الخازن، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

17. BBC NEWS: Source article: Monica Grady, Can physics prove if God exists?, The Open University, 2nd March 2021, LIFES BIG QUESTIONS I PHYSICS:
Arabic version: https://www.bbc.com/arabic/vert_fut_56326887.
English version: https://www.bbc.com/future/article/20210301_how_physics_could_prove_god_exists.

صدر للمؤلف

١) **ترشيد عمليات الصيانة بالأساليب الكمية**، رسالة ماجستير، ١٩٩٠، جامعة حلب، منشورات كاي، نشر إلكتروني. ويتضمن ثلاثة نماذج رياضية فريدة:
– نموذج استبدال التجهيزات (أسلوب البرمجة الديناميكية).
– نموذج تخزين قطع التبديل (أسلوب البرمجة الخطية والبرمجة الديناميكية).
– نموذج قياس الموثوقية.

٢) **دور الحضارة الإسلامية في تطوير الفكر المحاسبي**، رسالة دكتوراه، جامعة حلب، ٢٠٠٣، ، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣) **فقه المحاسبة الإسلامية / الجزء الأول: المنهجية العامة**، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٤) **معجم مصطلحات فقهية عربي / عربي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٥) **فقه المحاسبة الإسلامية / الجزء الثاني: المحاسبة الاجتماعية**، دار النهضة بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٦) **مشكلة البطالة وعلاجها في الفقه الإسلامي**، مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٧) **الفروق الجوهرية بين المصارف الإسلامية والمصارف الربوية**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٨) **صناعة التمويل في المصارف والمؤسسات المالية الإسلامية**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٩) **التأمين الإسلامي التكافلي، أسسه ومحاسبته**، دار شعاع.

١٠) **لغة الإفصاح المالي والمحاسبي XBRL**، دار أبي الفداء للنشر والتوزيع والترجمة، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١١) **سياستا تحصيل الزكاة وإلغاء الضرائب الماليتين (فقه الاقتصاد المالي)**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٢) **صندوق القرض الحسن**، دار شعاع، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٣) **ضوابط الاقتصاد الإسلامي في معالجة الأزمات المالية العالمية**، دار النهضة بدمشق – ودار السيد بالمملكة العربية السعودية – ودار شعاع بحلب (نسخة مزيدة ومنقحة)، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٤) **فقه المعاملات الرياضي**، دار أبي الفداء للنشر والتوزيع والترجمة، منشورات كاي، نشر إلكتروني. ويتضمن خمسة نماذج رياضية فريدة:
– النموذج الرياضي للربا.
– النموذج الرياضي للبيوع.
– النموذج الرياضي للغرر.
– النموذج الرياضي للاقتصاد الإسلامي.
– نموذج قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية بديلا عن مؤشر اللايبور.

١٥) **فقه الأسواق**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٦) **فقه الإيراد**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني. والكتاب مترجم للغة الأوردو.

١٧) **فقه التكلفة**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٨) **فقه الربح**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

١٩) **أيهما أصلح في الاستثمار معيار الربح أم معيار الاستثمار؟**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٠) **نموذج توزيع أرباح وخسائر شركات المضاربة الإسلامية – نموذج رياضي–**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني. والكتاب مترجم للإنكليزية.

٢١) **الفساد، أسبابه ونتائجه والحلول المقترحة للقضاء عليه**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٢) **معيار قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية (بديلاً عن مؤشر الفائدة)**، (سلسة فقه المعاملات الإسلامية) مؤسسة الرسالة ناشرون بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٣) **مؤسسات البنية التحتية للصناعة المالية الإسلامية**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٤) **أربعون قاعدة في الاقتصاد لبناء الأمة وإصلاح البلاد قواعد اقتصادية من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم**، دار الحديث والسيرة النبوية بدمشق، منشورات كاي، نشر إلكتروني، ونشرته هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة لشمال المغرب.

٢٥) **البحث العلمي نظرات في منهجه ورسالته**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٦) **فقه الابتكار المالي بين التثبت والتهافت**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٧) **منهج التغيير في كلمات رئيس التحرير**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٨) **نظرات في كتاب لمحة الناظر في مسك الدفاتر** (تأليف مشترك) ، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٢٩) **حلو الكلام**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٠) **إضاءات على الهداية الإلهامية في مسك الدفاتر والأعمال التجارية** (تأليف مشترك)، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣١) **معيار قياس أداء المعاملات المالية الإسلامية، (مقام) بديلا عن مؤشر اللايبور**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٢) **محاسبة التأمين الإسلامي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٣) **نظرات اقتصادية في تفسير الآي القرآنية – الجزء الأول: التفسير التحليلي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٤) **فقه الإدارة المالية والتحليل المالي**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٥) **السياسات النقدية والمالية والاقتصادية، المثلث غير المتساوي الأضلاع بنظرة إسلامية**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

٣٦) **إدراك الحقائق طريق الإيمان**، منشورات كاي، نشر إلكتروني.

إضافة لأكثر من ٣٣١ مقالاً متخصصًا.

جميع المؤلفات متاحة على الرابط : www. kantakji. com

إدراك الحقائق طريق الإيمان

مع قراءة منهجية لكتاب

المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي حجة الإسلام

هذا الكتاب موجه إلى:

- كل من أراد الوصول إلى حقيقة الإيمان بالدليل العلمي.
- كل من تمسك بفرقة ومذهب دون دراية.
- كل من حارت به السُبُل بحثًا عن طريق الحق.
- كل من أشرك بالله فظلم نفسه.
- كل من كفر بالله فأودى بنفسه..

والله من وراء القصد.

المؤلف..

www. kantakji. com